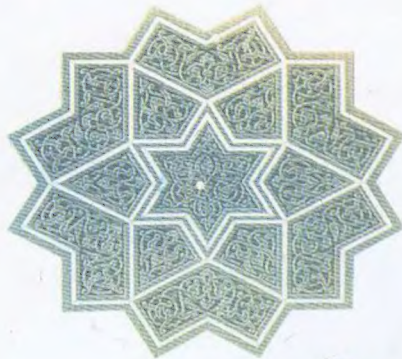


د. سالم علوي

أستاذ علوم اللسان العربي
بجامعة الجزائر المركزية

شجاعة العربية

أبحاث ودروس في
فقه اللغة



دار الآفاق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

صدق الله العظيم

سورة الزخرف / الآية 3

Tous droits réservés à Dar al Afaq

DAR AL AFAQ

10 rue Mustapha Khalef, EL Biar

Alger

شجاعة العربية

ISBN : 9961-57-200-9

DL : 443 - 2006

الصفحة	الموضوع
43	II / الاشتقاق
52	- لفظة علمية لغوية
54	III / الأخذ أوسع دائرة من الاشتقاق
57	1 - السليقة العربية
59	2 - الأخذ من الأصوات والصفات
61	3 - الأخذ من الأسماء الأجنبية
63	« تعقيب
65	4 - أخذ الأفعال من العضو للدلالة على إصابته
69	IV - الترجمة
69	1 - مدرسة جنديسابور
70	2 - مدرسة حران
70	3 - مدرسة الإسكندرية
73	- إشكالية الترجمة في العصر الحديث
76	V / المصطلح العربي وتطوره
82	VI / المعرب
82	- طرق معرفة الدخيل من الأصل
93	VII / المولد والنحت
103	- النحت
106	VIII / المجامع اللغوية العربية
109	الخلاصة

هذا العنوان ليس من لدُنِّي ، ولا من اختياري ، وإنما اقترضته من لدنّ عالم مُتَمَكِّنٌ أَمَكَّنَ في علوم اللسان العربي ، ذلك هو أبو الفتح عثمان بن جني ، الذي شاء أن يعنون الباب السابع والتسعين بهذا العنوان في مؤلفه القيم (الخصائص) الذي لا يستغني عنه أيّ باحث لساني في أيّ عصر من العصور ، ومن أيّ أمة وجيل كان ، لأنّ " طريق الحسن موضوع تتلاقى فيه طباع البشر ، ويتحاكم إليه الأسود والأحمر " . (١) كما يقول هو نفسه . ولئن كان الحسن موضوع تلاقٍ ، فإن اللغات موضع افتراق ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَاكُمُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . (٢)

وبذلك تختصّ كلّ لغة بمميّزات ذاتيّة تتمثّل في نظامها الصوتي والإفرادي والتركيبّي والدلالي ، وما العربيّة إلا لغة من بين اللغات البشرية ، التي قد أنعم الله بها على العرب خصيصاً ، وعلى من اختارها لساناً وتأليفاً ، ونزل بها آخر كتاب سماوي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٣) . فتعرّزت العربيّة بهذا المعطى الإلهي ، وظلّت صامدة شامخة أمام كلّ اللغات التي التقت معها ، ولم ينل الخصوم منها شيئاً ، رغم طغيان المنطق الإغريقي وفلسفته . إن فكرة عالمية الأفكار وخاصيّة اللغات فكرة أكّدها الدراسات اللغوية قديماً وحديثاً .

^١ - ابن جني : الخصائص . مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١ هـ . ١٩٥٢ م . ج ١ . ص ٩٠ .

^٢ - الروم . الآية ٢٢

^٣ - فصلت . الآية ٤٢

يقول أبو حيان التوحيدى على لسان أبي سعيد السيرافى، وهو يُحاجُّ بِشَرَبِنَ مَتَى المنطقيّ : " وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها ، في أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها، وتقديمها وتأخيرها، واستعارتها وتحقيقها، وتشديدتها وتخفيفها، وسعتها وضيقها، ونظمها ونثرها، وسجعها ووزنها، وغير ذلك .. مما يطول ذكره . وما أظنّ أحداً يدفع هذا الكلام أو يشكّ في صوابه : مما يرجع إلى مُسَكَّةٍ من عقل أو نصيب من إنصاف . فمن أين يجب أن تثق بشيء تُرجم لك عن هذا الوصف ؟ !.. بل أنت إلى تعرّف اللغة العربية أحوج منك إلى تعرّف معاني اليونانية ، على أن المعاني لا تكون يونانية ولا هندية ، كما أن اللغات تكون فارسية، وعربية وتركية، ومع هذا فإنك تزعم أن المعاني حاصلة بالعقل والفحص و الفكر، فلم يبق إلا إحكام اللغة العربية . فلم تُزري على العربية ، و أنت تشرح كتب أرسطو طاليس بها مع جهلك حقيقتها ؟ " (١)

وعلى ضوء هذا النص نستشف أن الصراع بين اللغات قديم . لذا اختار ابن جني هذا العنوان " شجاعة العربية " لِمَا أَحَسَّ به من طُغيان المنطق الإغريقي واستيلائه على منافذ التفكير اللغوي العربي ، فكان لزاما عليه أن يتعمق في دراسة العربية، لينتهي به البحث العلمي إلى شجاعتها وقدرتها على التعامل مع الواقع السائد في المناظرات والمساجلات اللغوية آنذاك، بل ويخترق الآفاق بفكره اللغوي الثاقب مستقبلاً تسابق اللغات في عصر " العولمة " و " الأنترنت " .

هذا العصر الذي تكسرت فيه القيود، وهدّمت السدود بين اللغات الحديثة ولم تصبح اللغات وسيلة للتبليغ والتواصل فحسب، وإنما أصبحت

١ - أبو حيان التوحيدى ، الإمتاع و المؤاتسة ، ضبط وتحقيق الأستاذين : أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة بيروت . ب. تا. ج ١ . ص ١١٥ : ١١٦

القوة الفاعلة، فهي أقوى وأعلى من المفاهيم الفورية من التماثل الذرية، لذا تسابق الأقوياء في نشر لغاتهم عبر المراكز الثقافية، ولا، والأنترنيت ثانيا ليصلوا إلى العولة التي يرمون من ورائها إلى الهيمنة القائمة على الإنسانية جمعاء في لغتها وفكرها ومصطلحاتها ومخترعاتها.

ولكن إذا كان المنطق الإغريقي القديم استبد بأفكار المناطقة واعتقدوا أنه العلم الصحيح الذي تُستوضح به المعاني والدلالات، وتدرك به المقاصد والغايات، وأن حظ علم العربية من هذا الجانب هزيل، فإن نزعة الولوع بالغريب الدخيل تفاقمت في عصرنا هذا أكثر، وأصابت أغراضها عند بعض اللغويين المعاصرين الذين لم يطلعوا على ما تزخر به المعارف العربية الأصيلة من عمق في الدراسات اللغوية، والتأليف العربية التي اتصفت بصفة الثبات والاستمرار، على مدى الأعصار، وما إعراض الناس عن الأصل إلا لأن "الناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد، وليس في الموجود الراهن، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى، مثل الذي لهم في الغريب القليل، وفي النادر الشاذ، وكل ما كان في مُلك غيرهم، وعلى هذا زهد الجيران في عالمهم، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم، وعلى هذا السبيل يستطرفون القادم عليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون من هو أعم نفعا وأكثر في وجوه العلم تصرفا، وأخف مؤونة وأكثر فائدة، ولذلك قدّم الناس الخارجي على العريق، و الطارف على التليد". (١)

وحجة هؤلاء أن المصطلح العربي غير منضبط، ولا ينطبق كل الانطباق على المخترعات العصرية، بينما المصطلح الوافد منضبط ودقيق.

والحقيقة أن هذا الانبهاام الحاصل في أذهان هؤلاء القوم ناتج عن الارتهان الحضاري، والضلال الثقافي، والأزمات الفكرية التي يتخبطون فيها،

١- الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة الخانجي 1380 هـ

بسبب تخليهم عن الثقافة العربية الأصيلة، فقد تعلموا العربية بواسطة اللغات الأجنبية، فاكتمست هذه اللغات صفة الجبر والقهر، ولغة المنشأ والمولد، لأنهم نشؤوا عليها وربوا في أكنافها .

أجل قد يرى بعض العلماء العرب المعاصرين ذوي النيات الحسنة فائدة من استعارة مصطلحات الآخرين، واستخدامها كمفاتيح فكرية، ومداخل ثقافية للتعامل مع علوم اللسان العربي بأفكار متفتحة، وهو رأي صائب وسديد. نشاطر أصحابه ونؤيدهم. شريطة ألا تكون هذه المصطلحات مغيرة لذواتنا العربية ولمورثتنا الحضاري والثقافي، ومن هنا يجب أن نتحفظ في الاقتراض .. متى يُقبل ؟ ومتى لا يُقبل ؟

هذا وقد نبهنا القرآن على ذلك عندما نهانا عن مصطلح " راعنا " وأرشدنا إلى " انظرونا " ، لأن في " راعنا " غرضاً خبيثاً راحه اليهود والمشركون للاستهزاء بالرسول (ﷺ) وأتباعه، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ (١) ، وذلك لأنه من المسلم به لغوياً وفكرياً أن إدراك أبعاد النص اللغوي تماماً لا يمكن أن تكون بغير لغته الأصلية، وأن عجمة اللسان يمكن أن تؤدي إلى عجمة القلب والبيان ، وعجمة التعبير يمكن أن تؤدي إلى عجمة التفكير.

نعم ثم نعم لتعلم اللغات الأجنبية وتفهمها، شريطة أن تكون روافد للعربية، لا أن تكون مغاليق لأسرارها ، ولنا المثل الحي فيما كتب علماؤنا الأبرار: أمثال الجاحظ: وهو يتحدث عن مصطلح البلاغة، فقال : " خبرني أبو الزبير، كاتب محمد بن حسان، وحدثني محمد بن أبان، ولا أدري كاتب من كان قالاً :

- قيل للغارسي : ما البلاغة ؟ . قال : معرفة الفصل من الوصل.

- وقيل لليوناني : ما البلاغة ؟ . قال : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام.

- وقيل للرومي : ما البلاغة ؟ . قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ،
والغزارة يوم الإطالة .

- وقيل للهندي : ما البلاغة ؟ . قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة ،
وحسن الإشارة " . (١)

هكذا يستعرض علماؤنا الأنظار المختلفة بأمانة علمية دون إصدار أحكام
عليها بالصواب والخطأ ، ويتقبلونها بأريحية عربية متفتحة ، لا تخشى
الغريب ولا تستهجنه ، آخذين ما يتوافق وطبيعة الفطرة العربية التي أنشأ الله
الأمّة العربية عليها ، وبها نزل القرآن الكريم ، لأنها من الفطرة الإلهية التي
فطر الناس عليها جميعاً .

ثم يخلصون إلى مفهوم البلاغة عند العرب العرباء ، لا على أنهم أفضل
الناس نسبا وعرقا ، ولكن على أساس أن لهم فضلا في القول ، ودرآية بمجاري
البيان . فيعمد الحدّاق من علماء اللسان العربي إلى مسالة الأعراب الذين لم
تمسّهم لَوْنَةُ الأعاجم . " قال ابن الأعرابي ؛ قال معاوية بن أبي سفيان
لصّحار (٢) بن عيَّاش العبيدي : ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ . قال : شيء
تجيش به صدورنا فتقدّفه على ألسنتنا . فقال له رجُل من عُرُض القوم :
يا أمير المؤمنين ؛ هؤلاء بالبسر والرُّطب أبصر منهم بالخطب . فقال صّحار :
أجل ؛ والله إنا لنعلم أن الريح لتلقحه ، وأن البرد ليعقده ، وأن القمر ليصبغه ،
وأن الحرّ لينضجه .

وقال له معاوية : " ما تعدون البلاغة فيكم ؟ . قال : الإيجاز ؛ قال
له معاوية : وما الإيجاز ؟ . قال صّحار : أن تجيب فلا تخطئ ، وتقول فلا

١ - الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ١ - ص 88

٢ - هو صّحار بن عيَّاش من بني عبد القيس ، كان من شيعة عثمان ، و كان علامة نسابة .
توفي 40 هـ .

تبطئ^١ . فقال معاوية : أو كذلك (فقال ابن جرير) : " لا تخشى " .
يا أمير المؤمنين أن لا تبطئ ولا تخشى " .

هذا التوجّه العلمي الذي يقبل آراء الآخرين من الطائفة المعتزلة
لنقدرك ما فاتنا من المخترعات وتسميها بمصطلحاتها العلمية ، وننشئ علماً
للسان مؤسساً على قواعد راسية تضرب بجذورها في أعماق التاريخ ، وتستشرف
المستقبل على هداية من المعرفة العلمية التي لا ينارح فيها أحد من علماء
اللسانيات العامة . فالعربية ليست لغة جامدة ؛ بل هي لغة نامية متحركة
قابلة للتطور في كل الميادين الصناعية والتجارية والتكنولوجية والثقافية
والسياسية ، وكل مناحي الحياة المعاصرة والآتية ، فهي لغة معطاء لا تعرف
التوقف ولا التخلف ، لذلك وسمها ابن جني بالشجاعة .

وخلاصة القول إن العربية هي لسان بشري قائم بنفسه ، يستمد
مقوماته الأساسية من الطبيعة ؛ فلا علاقة له بأسطورة اللغة " السامية " التي
لا وجود لها إلا في أذهان المفترضين ، الذين يفترضون افتراضات تسهلاً
لأعمالهم ، وينسون أنها مجرد افتراضات وهمية ، بخلاف اللغات الأخرى ،
كالسنسكريتية واللاتينية ، والإغريقية ، فإن نظم هذه اللغات الصوتية والإفرادية
والتركيبية والدالية قائمة موجودة ، وتطورت إلى لغات تباينت فيما بينها ،
واحتفظت بالأصل العام العضوي . وهذا الأصل العربي أدركه جيداً الأستاذ
زكي الأرسوزي الذي يقول : " إن اللسان العربي ذو بيان عضوي تنم فيه
الكلمة عن المعنى ، وتوحي به إحياء حتى أن اتجاه المعنى هو الاتجاه المتغلب
على اللفظة مما يجعل صاحبها أكثر استعداداً من غيره لفهم الأخلاق
والديانة ، إنما هو منظومة صوتية تعبر عن وجهة الأمة التي أنشأته ودلت
عليه " . (٢)

١ - المصدر السابق نفسه . ص 96

٢ - زكي الأرسوزي : من مقال للدكتور جعفر دك الباب (رحمه الله) ، المعرفة السورية .

سنة 1980 . عدد مزدوج . 222 / 223 ، ص 11

وعلاقة إحياء الصوت بالمعنى الدال عليه عرفها العلماء العرب منذ عهد سيبويه الذي لاحظ التكافؤ بين بنية بعض المصادر ودلالاتها، فقال :
 " و من المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعاني قولك :
 التَّزَوَانُ و النُّقْزَانُ ، و إنما هذه الأشياءُ في زعزعة البدن واهتزازة في ارتفاع ،
 ومثله العسلان والركتان ... ومثل هذا الغليان لأنه زعزعة و تحركٌ ، ومثله
 الغَثَيَانُ لأنه تَجَيَّشٌ نَفْسِهِ وَتَثَوُّرٌ ، ومثله الخَطَرَانُ وَاللَّمَعَانُ لأن هذا اضطرابٌ
 وَتَحَرُّكٌ . ومثل ذلك اللهبان و الصدخان والوهجان لأنه تحرك الحرّ و ثَوُّوره ،
 فإنما هو بمنزلة الغليان " . (١)

ومن النكت اللغوية التي تُنسب إلى بعض الذين استهواهم هذا الاتجاه
 ما رواه السيوطي في مزهره . فقال : " و كان بعض من يرى - هذا الرأي -
 يقول إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها ، فسئل : ما سمى " إذغاغ " ؟
 - و هو بالفارسية الحجر - فقال : أجد فيه يَبَسًا شديدًا و أراه الحجر .

و أنكر الجمهور هذه المقالة ، وقال : " لو ثبت ما قاله لاهتدى كل
 إنسان إلى كل لغة ، و لما صحَّ وضعُ اللفظ للضدين ، كالقَرءَ للحَيْض و الطُّهْرُ ،
 و الجون للأبيض و الأسود " . (٢)

و قد أفاض " ابن جني " في هذا كثيرا ، و خصَّص له بابين في الجزء
 الثاني من كتابه " الخصائص " ، وهما : " باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب
 المعاني " و الآخر " باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني " .. فقال : " اعلم
 أن هذا موضع شريف ، و قد نبّه عليه الخليل و سيبويه ، و تلقّته الجماعة
 بالقبول له ، و الاعتراف بصحته ..

قال الخليل : كأنهم توهّموا في صوت الجُنْدُب استطالة ومُدًا ، فقال :

١ - سيبويه : الكتاب . ج 2 : ص 218 . بولاق .

٢ - السيوطي : المزهر . دار إحياء الكتب العربية 1378 هـ 1958 م . ج 1 . ص 47

وقال سيبويه في المصادر التي جاءت من (النقازان) إليها تأتي للاضطراب و الحركة . نحو : النقزان . والغليان . والتشيعن . فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال . ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حداه؛ و منهاج ما مثلاه (١) . وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة للتكرير، نحو : الرعزعة؛ والقلقلة، والصلصلة، والققعقة . والصعصعة، والجرجرة ، والقرقرة " . (٢)

و الحقيقة أن البحث اللغوي العربي تَمَلَّك ابن جني واستهواه، وأصبح السمع الذي يتحسس به الأصوات اللغوية و روحه التي يستشعر بها المعاني الخفية التي تتجاوز ظاهر الصوت اللغوي إلى لطائفه وأسراره التي لا يحوط بها الوصف، فعما قاله : " فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج مُتَلَبِّبٌ عند عارفيه مأمومٌ، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدلونها و يحتذون عليها، وذلك أكثر مما ن قدره، وأضعاف ما تستشعره.

من ذلك قولهم : خَضِمَ ، و قَضِمَ؛ فالخَضَم لأكل الرُّطْب . كالْبَطِيخ والقثاء ، و ما كان نحوهما من المأكول الرطب و القَضَم للصلب اليابس، نحو: قَضَمَت الدابةُ شعيْرَها .. و نحوه ذلك . وفي الخبر " قَدْ يُدْرِكُ الخَضَمُ بِالْقَضَمِ " . أي قد يُدْرِكُ الرخاءُ بالشدة ، واللين بالشظف . وعليه قول أبي الرداء : " يخضَمون و نقضَم؛ والموعِد الله " . فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، و القاف لصلابتها لليابس. حَذُوا لمسوع الأصوات .. و من ذلك قولهم : النَّضْحُ للماء و نحوه، و النَّضْحُ أقوى من النَّضْح؛ قال الله سبحانه

١ - يعني بالثنائية الخليل و سيبويه بقوله : " ما حداه و منهاج ما مثلاه " .

٢ - ابن جني : الخصائص . ج ٢ . ص 152 / 153

وَتَعَالَى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاحَتَانِ ﴾ . (١) فجعلوا الحاء - لوقيتها - للماء الضعيف ، والحاء - لغلظها - لما هو أقوى منه .

ومن ذلك : القُدُّ طولاً ، والقَطُّ عرضاً ، وذلك أن الطاء أحصر للصوت وأسرع قطعاً له من الدال . فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرض ، لقربه وسرعته ، والدال المماثلة لما طال من الأثر . وهو قَطُّعُهُ طولاً " . (٢)

أنكر جلُّ العلماء اللغويين المعاصرين من غير العرب هذا الاتجاه ، لأنهم لم يطلعوا على خصائص اللغة العربية ونظامها الصوتي ، وتجانس الدلالات مع الألفاظ المنطوق بها ، وأدركه علماء البيان العربي فقالوا : " وقد يخفى سببه - أي الإعجاز - عند البحث ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به ، فقالوا : وقد يوجد لبعض الكلام عذوبة في السمع ، وهشاشة في النفس ، لا توجد مثلها لغيره منه - أي لغير القرآن - والكلامان معا فصيحان . ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة " . (٣)

هذه العذوبة والهشاشة يحسن بها الإنسان . ولا يستطيع أن يعبر عنها باللغة المتواطئ عليها ، فيهتز لها طرباً . ويشمئز أخرى كدراً .

١ - الآية 66 - من سورة الرحمن .

٢ - ابن جنى الخصائص . ج 2 . ص 157 - 158 .

٣ - الخطابي : بيان إعجاز القرآن . من رسالة في الإعجاز . مطبوعة ضمن ثلاث رسائل . دار المعارف بمصر . دون تاريخ . ص 22

II . كيف نشأت علوم اللغة العربية ؟

أ . قبل نزول القرآن :

إن الباحث في أصول اللغة العربية ، يعوزه العثور على الأطوار الأولى لنشأتها : والمراحل التي مرت بها حتى اكتملت أسُسُها ، وتلاحمت مبانيها مع دلالاتها التي نجدُها في هذا التراث الشعري المنسوب إلى العصر الجاهلي المتكامل في لغته وأوزانه ومعانيه وأغراضه المتنوعة : من مدح وهجاء . ونسيب ورتاء . وشجاعة وافتخار ، ووصف للطبيعة والآثار ، ومع هذا قيل : " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثيرٌ " . (١) وذلك لأن العرب قبل نزول القرآن كانوا يعتمدون الحفظ حكماً لهم . فلم يتركوا لنا كتاباً مدوناً معلوماً ، لا يرتقي الشك والريب إليه . لكن الذي ثبت لدى المتعاملين مع تاريخ آداب العربية أن هؤلاء العرب يملكون سليقة خطيرة بلغت مبلغاً عظيماً ، و جبلة ترسّخت فيهم ، و تمكنت في نفوسهم بدليل أن القرآن لما تحداهم أن يأتوا بمثله أو سورة منه ، تلقوه بألسنة حداد ، سجّل هذا القرآن . فقال :

﴿ فَإِنَّمَا يَسِرُنَا هٗ بِلِسَانِكَ لِقُبَشَّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تَنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لَدَا ۖ ﴾ . (٢)

و قَالَ أَيْضَا : ﴿ وَ قَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۖ ﴾ . (٣)

ولو لم يكن بالإمكان أن يأتوا بمثله ما تحداهم ، و لكنهم عجزوا واعترفوا ببيانه و أنه فوق طاقة البشر ، رغم أنهم يملكون من الزاد الفكري

١ - ابن سلام الجهمي : طبقات فحول الشعراء . سفر ١ . ص 25 . مطبعة المدني . دون تاريخ .

٢ - الآية 97 من سورة مريم .

٣ - الآية 58 من سورة الزخرف .

و اللغوي ما يؤهلهم للتصدي له. فهذا ابن جنى يعزو للعرب كل فضيلة ،
و أنهم كانوا في منتهى النضج و الإدراك ، و إنما دخل الشك في معارفهم
" لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ولا قوانين يعتصمون بها و إنما تهجم
بهم طباعهم على ما ينطقون به " . (١)

ب - بعد نزول القرآن :

القرآن و لفظة اللغة :

لم ترد لفظة اللغة في القرآن الكريم ، و إنما وردت فيه لفظة " اللسان "
منعوتة أو مضافة .

قال الله سبحانه و تعالى : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ، وَ هَذَا لِسَانٌ
عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ . (٢)

وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ . (٣)

ولكن الذي شاع في المؤلفات العربية هي لفظة " لغة " .. و ظهرت كتب
تحت عناوين مختلفة تحمل مصطلح اللغة ، مثل : " فقه اللغة " للثعالبي ،
و آخر لصاحبي . و عرفها ابن جنى بقوله : " حُدِّثَ أَنَّهَا أَصَوَاتٌ يَعْبُرُ بِهَا كُلُّ
قَوْمٍ عَنْ أَغْرَاضِهِمْ " (٤) . " و بين اشتقاقها و أنها مشتقة من اللغو . و تعرَّز هذا
المصطلح بالمجامع اللغوية العربية التي تكونت في زماننا هذا فقالوا : مجمع
اللغة العربية بمصر و المجمع اللغوي بسوريا . و انتهى الأمر في الجزائر
" بالمجلس الأعلى للغة العربية " .

١- ابن جنى : الخصائص . دار الكتب المصرية . 1376 هـ 1956 م . ج 3 ، ص 273

٢- الآية 103 من سورة النحل .

٣- الآية 4 من سورة إبراهيم .

٤- ابن جنى : الخصائص . ج 1 ، ص 33

وعليه فلا داعي للتعرض لآراء بعض المنتطعين الذين أنكروا عروبة لفظة " لغة " ، وقالوا : إنها دخيلة من لغة اليونان لوجوس ^(١) (logos) لكن الذي ظهر في محيط التأليف العربي هو هذه الإضافة " فقه اللغة " أو " علم اللغة " .

فلفظة علم لم تكن واردة في الجاهلية بهذا المفهوم العلمي الأكاديمي الذي ورد في القرآن .

قال الله تعالى : ﴿ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَهُمَا رَحْمَةً مِنْ عِبْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ ^(٢) .

وقال أيضاً : ﴿ وَقَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ ^(٣) .

هنا بدأ الفكر العربي يتلمس الفروق بين " علم اليقين " و " حق اليقين " . وانطلق العلماء العرب في التأليف العلمي واللغوي بذهنية عربية صرفة لا يشوبها أي أثر أجنبي دخيل . فالخليل بن أحمد الفراهيدي حدّد العلوم في أربعة ، فقال : " العلوم أربعة : علم له أصل وفرع ، وعلم له أصل ولا فرع له ، وعلم له فرع ولا أصل له ، وعلم لا أصل له ولا فرع . فأما الذي له أصل وفرع فالحساب ، ليس بين أحد من المخلوقين فيه خلاف . وأما الذي له أصل ولا فرع له فالنجوم ، ليس لها حقيقة يبلغ تأثيرها في العالم - يعني الأحكام والقضايا على الحقيقة - . وأما الذي له فرع ولا أصل له فالطب : أهله منه على التجارب إلى يوم القيامة . والعلم الذي لا أصل له ولا فرع فالجدل .

^١ - و من أراد التوسع في دحض هذا الرأي فليعد إلى كتابنا " ملامح علم الدلالة عند العرب " ص 07 ، (رسالة دكتوراه الدولة) .

^٢ - الآيتين 62 - 63 من سورة الكهف .

^٣ - الآية 41 من سورة النمل .

قاله أبو بكر الصولي : " يعني الجدل بالباطل " . (١) .

إن هذه العلوم التي ذكرها الخليل منها ثلاثة، تدرس في إطار العلوم الصرفة، وهي : الرياضيات وعلم الأرصاد والنجوم والطب . أما العلم الرابع فقد هوّن من أمره ، وهو العلم الذي لا أصل له ولا فرع ، ولعله يقصد به علم " الاجتهاد " المبني على الاستنباط واعتماد الفكر المحض الذي لا ينتهي إلى حد .

هذا فكر الخليل بن أحمد (المتوفى 175 هـ) . والذي قال عنه القفطي : " نحوي لغوي عروضي ، استنبط علم العروض وعلمه ما لم يستخرجه أحد ، و لم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم . وقيل إنه دعا بمكة أن يُرزق علما لم يسبقه إليه أحد ، ولا يؤخذ إلا عليه ، فرجع من حجة . ففتح عليه بالعروض " . (٢)

ولا شك أن دراسة هذه العلوم التي أتى على ذكرها كانت تدرس باللغة العربية ، وهو ما يؤكد ابن جنى الذي يقول : " إنما هو علم منتزع من استقراء هذه اللغة . فكل من فُرّق له عن علة صحيحة ، وطريق نهج كان خليل نفسه ، و أيا عمرو فكره .

إلا أننا - مع هذا الذي رأينا و سوّغنا مرتكبه - لا نسمح له بالإقدام على مخالفة الجماعة التي قد طال بحثها . و تقدم نظرها ، و توالى أواخر على أوائل ، و أعجازا على كلال كل القوم الذين لا نشك في أن الله - سبحانه و تقدست أسماؤه - قد هداهم لهذا العلم الكريم ، و أراهم وجه الحكمة في الترجيب له و التعظيم ، و جعله ببركاتهم . و على أيدي طاعاتهم ، خادما للكتاب المنزل . و كلام نبيه المرسل . و عوناً على فهمهما ، و معرفة ما أمر به . أو نُهي عنه الثقلان منهما ، إلا بعد أن يناهضه إتقاناً ، و يثابته عرفاناً ، ولا

١ - القفطي : إنباه الرواة على أنباء النحاة . مطبعة دار الكتب المصرية 1369 هـ / 1950 م .

ج ١ . ص 346 / 347 .

٢ - المصدر نفسه . ص 342

يُخْلَدُ إِلَى سَانِحِ خَاطِرِهِ، وَلَا إِلَى نَزْوَةٍ مِنْ نَزَوَاتِ تَفَكَّرِهِ. فَإِذَا هُوَ حَذَا عَلَى هَذَا الْمَثَالِ. وَيَبَاشِرُ بِإِنْعَامِ تَصَفِّحِهِ أَحْثَاءَ الْحَالِ، أَمْضَى الرَّأْيِ فِيمَا يَرِيهِ اللَّهُ مِنْهُ غَيْرَ مُعَاَزٍ (١). وَلَا غَاضٍ مِنَ السَّلَفِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - فِي شَيْءٍ مِنْهُ. فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ سَدَّدَ رَأْيَهُ، وَشَبَّحَ خَاطِرَهُ. وَكَانَ بِالصَّوَابِ مَيَّنَّةً، وَ مِنَ التَّوْفِيقِ مَيَّزَةً.

و قد قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : " ما على الناس شيء أضر من قولهم : ما ترك الأول للآخر شيئاً " . و قال أبو عثمان المازني : " و إذا قال العالم قولاً متقدماً فللمتعلم الاقتداء به و الانتصار له ، و الاحتجاج بخلافه إن وجد إلى ذلك سبيلاً " . (٢)

إن المنهج العلمي المتبع في علم اللغة العربية المنضبط بالاستقراء والتحرّي و التتبع لمجاري كلام العرب من أفواه الأعراب الخلص، و من القرآن الكريم، و كلام الرسول (ﷺ) و التابعين أصفياء اللغة يجب أن يبقى هذا النهج منفتحاً على كل من رأى علة صحيحة يعتل بها، أو رأياً صائباً يحتاج به لیسد به ثغرة أو خللاً رأى أنَّهما في حاجة إلى سداد أو تخطيط . لأنه ما أهلك الناس إلا قولهم : " ما ترك الأول للآخر شيئاً " . فسدوا باب الاجتهاد بهذه المقولة، و ما درؤا أن هذا التيار المتدفق على أفواه البشر لا يمكن غلقه أبداً، إذ الأفواه تدفع، و الأذان تسمع، و لا رادٌ لهذين النبعين : أحدهما يتفث و الآخر يبحث، و اصطلاحاً على تسميتهما بالمرسل والمرسل إليه، أو الملقى و المتلقى، فلا يستطيع المرء أن يسدّ الأسماع أو يكفم الأفواه أو يعطل العقل الذي يزن الصائب من الخائب . و قديماً قال أبو تمام الطائي ساحراً من هؤلاء الذين قالوا : " لَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ أَبْدَعُ مِمَّا كَانَ .. " .

يَقُولُ مَنْ تَطَرَّقُ أَسْمَاعَهُ كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلَ لِلْآخِرِ!

١ - المعازة : المغالبة .

٢ - ابن جني : الخصائص . ج 1 . ص 189 - 190 .

إنها (كم) الخبرية التي تدلّ على التكثير. "إلا أننا - مع هذا الذي رأينا و سَوَّغنا مرتكبه - لا نسمح له بالإقدام على مخالفة الجماعة التي قد طال بحثها، وتقدم نظرها، وتوانت أواخر على أوائل، وأعجازا على كلال، و القوم الذين لا نشكّ في أن الله - سبحانه وتقدس أسماؤه - قد هداهم لهذا العلم الكريم؛ و أراهم وجه الحكمة في الترجيب له والتعظيم".

إن هذا التحفظ ضروري حتى لا يصبح علماؤنا الأبرار عرضة للسخرية والاستهزاء، و علمهم عرضة للتنكر والازدراء، لأنهم أبَلَّوا البلاء الحسن في خدمة اللغة العربية، واجتهدوا وما قصَّروا، و أبَوْا أن يعلقوا الباب على أنفسهم. فهذا الخليل بن أحمد يقول على اجتهداه في العلل التي يعتل بها. " فقليل له : أعن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ . فقال :

إن العرب نطقت على سَجِيَّتِها وطِباعِها، و عرفت مواقعَ كلامِها، و قام في عقولِها علله. وإن لم ينقل ذلك عنها، و اعتلت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه. فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمسْت. وإن تكن هنالك علة له فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء، عجيبه النظم والأقسام، و قد صَحَّت عنده حكمة يانيها، بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة و الحجج اللائحة، فكلمها وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال : " إنما فعل هذا هكذا لعله كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا، فكل فكرة سنحت له و خطرت بباله محتملة لذلك، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، و جائز أن يكون فعله لغير تلك العلة إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك. فإن سَنَحَ لغيري علة لما عللته من النحو هي أليق مما ذكرت بالمعلول فليأت بها " . (١)

١ - الزجاجي : الإيضاح في علل النحو . تح/ مازن المبارك . دار العروبة مصر . دون تاريخ.

و هنا لا بد من وقفة لنقول : لئن كان النقاد العرب و المهتمون بآداب العربية صرفوا اهتماماتهم إلى الحركة الأدبية ، ولاحظوا ما طرأ على هذه الآداب من مذاهب نقدية قديمة وحديثة ، وفرّقوا بين تاريخ الأدب و العمل الأدبي نفسه ، فإن اللغة العربية كان حظها من هذا الجانب ضعيفا ، مع أنه أصابها ما أصاب الآداب من انكسارات و إحداثات ، تنبه لها علماءنا الأبرار قديما ، فقال أبو عمرو بن العلاء : " ما لسان حمير و أقاصي اليمن (اليوم) بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا . فكيف على عهد عاد و ثمود مع تداعيه و وهيه . " (١) فقلوه " اليوم " ضبطاً تاماً للعصر الذي يعيش فيه . و قال في موضع آخر : " و لكن العربية التي عنى محمد بن علي اللسان الذي نزل به القرآن ، وما تكلمت به العرب على عهد النبي (ﷺ) ، و تلك عربية أخرى غير كلامنا " . (٢)

إن هذه الأقوال صريحة في تغيير اللغة العربية و تغييرها من عهد إلى عهد ، و من زمن إلى زمن . و على هذا فإن علوم اللغة العربية نشأت نشأة عفوية ثم تلاقت مع حضارات أمم كانت تتمتع برصيد لغوي و فلسفي كبيرين ، فخضعت لقانوني التأثير و التأثر ، تبعاً لسنة الله ، و لن تجد لسنة الله تبديلاً ، فتفاعلت مع هذا الوافد الدخيل من هذه الحضارات التي سادت ثم يادت . و ما فقدت عبقريتها و خصائصها المتمكنة في الذهنية العربية . ولم تنغلق انغلاقاً كلياً ، يجعل منها لغة متحجرة ميتة لا تتفاعل مع الواقع المعيش ، مما جعل الخوارزمي (المتوفى سنة ٢٢٨ هـ) يكتب لنا كتاباً في تاريخ العلوم العربية ، مبيناً ما هو عربي أصيل ، و ما هو معرب دخيل ، فقال : " و لم أشتغل في التفسير المعرّب ، والاشتقاق البارد ، ولا بإيراد الحجج

^١ - ابن سلام الجهمي : طبقات فحول الشعراء . السفر الأول : ص ١١

^٢ - المرجع السابق نفسه . ص ١٠

الشراهد. إذ أكثر هذه الأوضاع أسامي و ألقابا اخترعت: وألفاظاً من كلام
لجهم أعرِيت. و سميت هذا الكتاب "مفاتيح العلوم". و جعلته مقاليتين
(إحداهما) لعلوم الشريعة و ما يقتزن بها من العلوم العربية. و (الثانية) لعلوم
العجم من اليونانيين و غيرهم من الأمم. و بالله التوفيق و المنة و المنّة،
و منه التسديد و العصمة ". (١)

و اللافت للنظر أن هذا العالم بتقسيمه العلوم إلى قسمين نلمس أن هذا
التقسيم هو السائد في عصرنا هذا. عصر العولمة و الأنترنت. فالقسم الأول هو
ما يسمى بالعلوم الإنسانية بمعناها الواسع. و يشمل ستة أبواب و اثنين
و خمسين فصلاً. و هذه الأبواب هي الفقه، وفيه أحد عشر فصلاً، و علم
الكلام و يحتوي سبعة فصول. و علم النحو؛ وفيه اثنا عشر فصلاً، و علم
الكتابة و الإنشاء، و فيه ثمانية فصول. و علم الشعر و العروض؛ و فيه خمسة
فصول، و علم الأخبار و السير؛ و فيه تسعة فصول.

أما القسم الثاني فهو ما يطلق عليه مصطلح العلوم الدقيقة، و يشتمل
على تسعة أبواب و خمسين فصلاً.

و هذه الأبواب هي كما صنفها الخوارزمي: علم الفلسفة و فيه ثلاثة
فصول، و علم المنطق و فيه تسعة فصول، و علم الطب و فيه ثمانية فصول،
و علم المنطق و فيه تسعة فصول، و علم الرياضيات (العدد) و فيه خمسة
فصول، و علم الهندسة و فيه أربعة فصول، و علم النجوم و فيه أربعة فصول،
و علم الموسيقى و الفن و فيه ثلاثة فصول، و علم الحيل و فيه فصلان،
و علم الكيمياء، و فيه ثلاثة فصول.

إن الباحث المنصف الموضوعي المجرد من كل نزعة عرقية أو حضارية

١ - الخوارزمي: مفاتيح العلوم. دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - د.ت. ص 4

ليجد نفسه مضطراً أن يعترف بأن اللغة التي وسعت هذه العلوم الإنسانية والتكنولوجية قديماً ليست قاصرة على استيعاب هذه المخترعات الحديثة ما دامت أسامي و ألفاظاً عربية أو معربة . فلو أخذنا على سبيل المثال " الباب الثالث " و هو الطب لوجدنا فصوله الثمانية هي على التوالي :

- الفصل الأول في التشريح.
- الفصل الثاني في ذكر الأمراض و الأدوية.
- الفصل الثالث في الأغذية.
- الفصل الرابع في الأدوية المفردة.
- الفصل الخامس في أدوية مفردة مشتبهة الأسماء.
- الفصل السادس في الأدوية المركبة.
- الفصل السابع في أوزان الأطباء و مكاييلهم.
- الفصل الثامن في الغوارر.

هذا الفصل الأخير يوحى بالنوادر الأدبية . و هالك نموذج منه " الأمزجة تسعة . وهي : المعتدل و الحار و البارد ، و الرطب ، و اليابس ، و الحار الرطب ، و الحار اليابس ، و البارد الرطب ، و البارد اليابس " . (١)

و يأخذ في تحليلها تحليلاً طبياً و يبين الأخطار التي تنجم عن تناول الحار و البارد . و هنا تذكرت أن الأطباء يفهمون زبائنهم عن أكل الحار و تناول الدخان لما يحدثانه من آلام في المعدة . ولا شك أنها مأخوذة من هذه التعاليم الطبية المكتسبة من التجارب المتلاحقة . وقد سبق لنا أن عرفنا في تقاسيم العلوم عند الخليل بن أحمد أن علم الطب لا أصل له ولا فرع ، لأن أصحابه دائماً في تجارب متلاحقة .

١ - الخوارزمي : مفاتيح العلوم . ص 106

رصدنا تحت هذا العنوان الكبير مرحلتين، إحداهما : طرأ على العلماء العرب القديمي . وتنبهوا إليها ، وخصوصاً بالدراسة ، حيث لا يفترون الحركة الدائبة للغة العربية . و أنها معطى اجتماعي ينمو بنمو الحضارة و تطور المكتشفات ، و تهتم بهمودهما ، فتساءلوا : " أفى وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط ؟

وكيف تصرف الحال . و على أي الأمرين كان ابتداءها ، فإنها لا بد أن يكون وقع في أول الأمر بعضاً ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه . لحضور الداعي إليه . فزيد فيها شيئاً فشيئاً ، إلا أنه على قياس ما كان سبق منها في حروفه . و تأليفه ، و إعرابه المبين عن معانيه ، لا يخالف الثاني الأول ، ولا الثالث الثاني ، كذلك متصلاً متتابعاً ، و ليس أحد من العرب الفصحاء إلا يقول : إنه يحكي كلام أبيه و سلفه ، يتوارثونه آخر عن أول ، و تابع عن متبع " . (١)

هذا التوجه العلمي اللغوي المنبني على أساس " ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم . و وضعناه تحت عنوان : " مفهوم التطور اللغوي عند العلماء العرب الأصلاء ، و دوره في إثراء العربية " .

والمرحلة الثانية قصدنا بها المجامع اللغوية العربية الحديثة التي أنشأها العلماء العرب المعاصرون لنفس الحاجة التي قصدوا العلماء الأوائل غير أن أسلوب العمل مختلف ، و مناهجه متطورة وواعية ، يقول الدكتور إبراهيم مذكور - رحمه الله - الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالقاهرة :

" إنه يجدر بنا أن نأى عن الألفاظ الغريبة و الثقيلة النطق ، و أن نتحرى في مستحدثات الحضارة خاصة الاستعمال الشائع في البلاد العربية عامة . و يلاحظ أنه لا مناص من التعريب ، و بخاصة في تلك المصطلحات التي

أصبحت شبه عالمية، أو التي استمدت من أصول يونانية أو إغريقية " . (١)

ما أشبه هذا الكلام بما جاء عند الخوارزمي الذي يقول : " وقد جمعت في هذا - يعني كتاب مفاتيح العلوم - أكثر ما يحتاج إليه من هذا النوع متحريرا للإيجاز و الاختصار - و متوقيا للتطويل و الإكثار - و ألغيت ... ما هو غامض غريب، لا يكاد يخلو إذا ذكر في الكتب من شرح طويل و تفسير كثير... إذ كان أكثر هذه الأوضاع أسامي و ألقابا اخترعت، و ألفاظا من كلام العجم أُعربت " . (٢)

و قد اخترنا لهذه المرحلة عنوانا هو : " دور المجامع اللغوية المعاصرة في ترقية اللغة العربية " .

و في هذين الرافدين تتجلى لنا عبقرية العربية، و أنها قادرة على استيعاب العلوم مهما كان نوعها، و أنها تملك مرونة و صلابة في آن واحد؛ مرونة تظهر في قدرتها على الاشتقاق و النحت و التوليد. و صلابة في تمنعها من أن تذوب في لغات الآخرين، لما لها من خصائص في ألفبائيتها و كليتها و تأليقها و دلالتها الموحية بمعانيها.

^١ - إبراهيم مذكور : البحوث و المحاضرات (مؤتمر الدورة 30) القاهرة، 1384هـ / 1965 م.

^٢ - الخوارزمي : مفاتيح العلوم . ص 04.

أ . مفهوم التطور اللغوي عند العلماء العرب الأوائل

و دوره في إثراء اللغة العربية وترقيتها .

• تمهيد :

ماذا نعني بتطور اللغة العربية وترقيتها ؟

إن ألفاظ اللغة أي لغة كانت يعتريها ما يعتري الكائن الحي من تغيير وتغيير و زيادة و نقصان ، و مرض و صحة ، و حياة و موت ، رغم أن ليس لها " ذات ولا وزن ولا لون ، و هي مسموعة بالآذان . موصوفة بالألسن غير منظور إليها " . (١)

و لكن دلالاتها منها المتغيرة والثابتة ، فالدلالة عرضة للاهتزاز . و الحذف و البتر و الموت و الحياة ، لما يطرأ عليها من الاستعمالات المختلفة للمجتمعات المتنامية و المتباينة ، و الخاضعة للحاجات ، المولدة لإشباع أغراض البشر ، و أعرافهم و معاملاتهم . و هو اجسهم الدينية و الدنيوية غير المتناهية ، فهي ظاهرة اجتماعية تزدهر بإزهار فنون القول ، و تغدو بفصل الخطاب . لكنها لا تسير على وتيرة واحدة في التطور مثل ما يخضع له الكائن الحي الذي يبدأ ضعيفا ، ثم يقوى ثم يشيخ و يهرم . فالتطور الدلالي تحكمي ، و ليس من الضروري أن يسير على خط النمو و الارتقاء . بل على النقيض من ذلك ، فقد تكون دلالة لفظ ما في أعلى عليين . و في أعلى مستوى من الدلالة و أرقاها ، ثم يصيبها التحول و التغيير إلى أسوأ الدلالات . ولنا مثل فيما نقول في لفظ « الجرثومة و الأرومة » .

فالجرثومة في وضعها اللغوي تدل على أصل الشيء جاء في فقه اللغة للثعالبي : " الجرثومة و الأرومة أصل النسب " . (٢) فاللفظتان تغيرت دلتهما .

١ - أبو حاتم الرازي : كتاب الزينة في الألفاظ الإسلامية العربية القاهرة 1957 . ج 1 . ص 68

٢ - الثعالبي : فقه اللغة ، منشورات مكتبة الحياة - بيروت . د . ت . ص 63

فإحداهما تحولت من دلالتها الأساسية التي تعني الأصل والنسب إلى العاهة المزمّنة، و غُدت مصطلحا طبيا يدل على « الميكروب Microbe » والأخرى تنوسيت و فقدت إشعاعها الدلالي و نامت في غُضون النصوص العربية الأولى، و قلَّ استعمالها في الإنشاءات المعاصرة .

و من الألفاظ التي اكتسبت دلالة التوسع و الارتقاء لفظ (المسرح) الذي كان يعني مرعى الإبل و الغنم و الخيل و البغال و الحمير، و غيرها من الأنعام، لكن دلالتها شاعت و ارتفعت إلى علم ذي مستوى عال، له قوانينه الخاصة، و مناهجه الخاصة، و اختص به أقوام من الكتاب المختصين . وما مصطلح " الفنان " بأقلّ تطوّرا من مصطلح " المسرح " ، فقد كان يطلق على الحمار الوحشي لتفنّنه في العَدْو؛ لكن دلالته المتداولة اليوم تعني صاحب الموهبة الفنية؛ كالشاعر والكاتب والموسيقي والمصور والممثل، وغير هؤلاء مما يطلق عليه مصطلح " المبدع " .

هذه هي إرادتنا من تطور اللغة العربية إنما نعني بها التغير و التحول من أعلى إلى أسفل أو من أسفل إلى أعلى، أو من الانكماش إلى الازدهار أو العكس و باختصار التحول من حال إلى حال، أو الثبات والدوام .

• الإحساس الفطري :

هل أدرك العرب هذا التطور و التحول في دلالات الألفاظ ؟ الحقيقة أن العرب كانوا يتوفرون على حسّ لغوي خارق للعادة، به يلاحظون الإحداثيات التي تحدث في كلمهم . فقد روت لنا كتب السيرة و تفاسير القرآن أن العرب لم يتقبلوا القرآن بسهولة، فراحوا يترصدون أساليبه، وألطف ما جاء في هذا الصدد تلك القصة التي تلقفها الرواة والمفسرون و البيانيون، وذلك أن قريشا اجتمعت في دار الندوة ؛ فقال لهم الوليد بن المغيرة المخزومي إنكم ذوو أحساب و ذوو أحلام ، وأن العرب يأتونكم فينطلقون من عندكم على أمر

مختلف. فأجمعوا أمركم على شيء واحد، ما تقولون في هذا الرجل ؟ قالوا :
نقول إنه شاعر فعَبَسَ عندها، و قال : قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر.
فقالوا : نقول : إنه كاهن، قال : إذا تأتونه فلا تجدونه يحدث بما يحدث
به الكهنة. قالوا : نقول : إنه مجنون، قال : إذا تأتونه فلا تجدونه مجنوناً.
قالوا : نقول : إنه ساحر، قال : وما الساحر ؟ فقالوا : بشر يحببون بين
المتباغضين، و يبغضون بين المتحابين، قال فهو ساحر . فخرجوا، فكان
لا يلقي أحدٌ منهم النبيَّ (ﷺ) إلا قال : يا سَاحِر، يا سَاحِر.

اشتد عليه ذلك، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ .. إِيَّا قَوْلِهِ :

﴿ قَوْلَ الْبَشَرِ ۖ ﴾ (١)

هذا الإحساس الساذج فيه دلالة على شعورهم بتحول مجاري الألفاظ
و تغييرها، و قد خالفت أقوال الشعراء و الكهنة، و أن دلالات الألفاظ قد
تحولت و لم يجدوا لها نظيراً في الكلام المتعارف لديهم، سوى أن لها آثاراً
تشبه آثار السحر في المسحور، و كانوا من قبل على جانب عظيم من دقة
الملاحظة، جاء في الموازنة للآمدي أن طرفة بن العبد نقد المسيب عندما قال :

" وَ قَدْ أَتَنَاسَى الْهَمُّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيَّةُ مَكْدَم "

و قالوا : الصيعرية سمة للنوق لا للفحول ، فسمعه طرفة بن العبد ، و هو
صبي، فقال : " اسْتَنَوَقَ الْجَمَلُ " ، وَ ضَحِكَ مِنْهُ ، فَذَهَبَ مَثَلًا .

و يقال : إن المسيب قال له : " أَخْرَجَ لِسَانَكَ يَا فَتَى " فأخرجه،
فقال : " ويل لهذا من هذا، يعني رأسه من لسانه " . (٢)

وقد أدرك العلماء العرب هذا التطور جيداً . فهذا ابن سلام الجُمحي
يقول : " ولكن العربية التي عنى محمد بن علي هي اللسان الذي نزل به

١ - الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ٦. دار مكتبة الحياة بيروت . د. ت . ج ٢٩ . ص ١٠٩

٢ - الآمدي : الموازنة ، دار المعارف بمصر ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م . ج ١ ، ص ٤٠

القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبي (ﷺ) ، وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا . وقال أبو عمرو بن العلاء في ذلك : " ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا ، فكيف بما على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووهيه ؟ " . (١)

ويذكر الخطابي نفس كلام أبي عمرو بن العلاء ، ثم يقول : " وقد زعم بعضهم أن كلام العرب كان باقيا على نَجْرِهِ وعلى سِنَخ طبعه إلى أيام بني أمية ، ثم دخله الخلل فاختل منه أشياء " . (٢)

و أما ابن جني وهو الحصيف الرأي . الثاقب الذهن . المحقق للأقوال فقد جاء عنه " قيل قد يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدا ، و عفا رسمها و تأبدت معالمها ...

و بعد فلسنا نشك في بُعد لغة حمير ونحوها عن لغة ابن نزار ومضر و ربيعة ، فقد يمكن أن يقع شيء من تلك اللغة في لغتهم ، فيُساء الظنُّ فيه بمن سمع منه . وإنما هو منقول من تلك اللغة " . (٣)

و جاء عن حماد الراوية قال : أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطنوج ، قال : و هي الكرايس ، ثم دفنها في قصره ، فلما كان المختار بن أبي عبيد قيل له : إن تحت القصر كنزا . فاحتَفَرَهُ ، فأخرج تلك الأشعار . فمن ثمَّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة . وهذا ونحوه مما يدلُّ على تنقل الأحوال بهذه اللغة ، واعتراض الأحوال عليها ، و كثرة تَغَوُّلِهَا وَ تَغْيِيرِهَا " . (٤)

^١ - ابن سلام : طبقات فحول الشعراء . ج ١ . ص 10 / 11 . (بتصرف) .

^٢ - الخطابي : رسالة في بيان إعجاز القرآن - ضمن ثلاث رسائل . ص 42

^٣ - ابن جني : الخصائص . ج ١ . ص 386 . (بتصرف في النص) .

^٤ - المرجع السابق نفسه . 387

• مِنَ الْإِحْسَاسِ الْفِطْرِيِّ إِلَى الْإِدْرَاكِ الْكُلِّيِّ :

لقد تحقق الافتراض الذي افترضناه بأننا نعني بالتطور التغير والتحول. و بات ثابتاً من النصوص و الشواهد التي أثبتناها أن العلماء العرب أدركوا التحول و التغير و الزيادة و الحذف في بعض الكلم، و هو تطوُّر ناتجٌ عن كثرة الاستعمال أو قلته، و يوظفون مفردات تدل دلالة قاطعة على أن للزمن دوراً كبيراً في تطور الدلالات و تغييرها". تلك عربية أخرى غير كلامنا هذا ". " ما لسان حمير اليوم بلساننا ". إنما جاء هذا على لغتهم الأولى قبل أن يدخلها التغيير". وهذا ونحوه مما يدلُّ على تنقُّل الأحوال بهذه اللغة، واعتراض الأحوال عليها و كثرة تَغَوُّلِهَا و تَغْيِيرِهَا ..".

هذا الضبط لم يكن وليد الإحساس و الصدفة إنما كان ناجماً عن معاناة و ممارسة و تعمق في الدراسة العلمية، التي أجهدوا أنفسهم فيها، حتى انتهى بهم الأمر إلى التأليف المنهجي المنظم المتمثل في كتب الأضداد و المترادفات و المشترك و الاشتقاق، و ميزوا بين مفرداته المتباينة، و ما يطرأ عليها من تطور دلالي. دعت الحاجة إليه، فغذاه التداول والاستعمال، و تمرَّد بعضه عن الوضع اللغوي، و اكتسب دلالة جديدة مكنته من الشيع و الذبوع. و قد أصاب هذا التطوُّر الدلالي مجمل العربية، إلا أنه كان في بعض المتاحي أظهر من بعض. لحاجة الناس إليه في مخاطباتهم اليومية، و معاملاتهم العرفية و العادية و الشرعية. و رغم هذا التطور و الإدراك الكلي له، فإننا لا نعثر إلا على تنف من الأقوال مدسوسة في طيِّات الكتب و المعاجم. و كأن العربية حدثت في عصر واحد. و دلالتها ثابتة قارة في خط ثابت، فما وجدنا مؤلفاً قائماً بذاته، يرصد لنا حركات التطور الدلالي منذ الجاهلية ثم الإسلام ثم العصور المتتالية، بيد أن جهودهم العلمية كانت في غاية الاحتياط والاستنباط. فقد التمسوا أبواباً كثيرة ركَّزوا عليها واعتبروها بمثابة المنارات

الهادية إلى سبل أسس البحث العلمي اللغوي، واتخذوا مقاييس وضوابط اعتمدها فكانت فضاء رحبا لنمو العربية وتطورها؛ كالأشهاد والنظائر والقياس والميزان الصرفي، والنحت والأخذ والاشتقاق والاستعمال والاطراد والشذوذ، والمولد والمعرب، والأصيل والاصطلاح.

كل هذه الآليات ساعدت على نمو العربية وتوسعها في مختلف الحقول الدلالية المتنامية في بيئتهم عصرئذ. فآلحقوا الشبيه بالشبيه، وحملوا الفرع على الأصل، وقاسوا المجهول على المعلوم، ولم يتخلفوا أو يتوقفوا؛ وإنما كانوا يجدون ويجتهدون وفق السليقة العربية المتمكنة في وجدانهم وطبيعتهم الأصلية أو المكتسبة بطريقة الممارسة والمخالطة، فكانوا عربا بالنشأة والتكوين. قال جابر الله محمود بن عمر الزمخشري: "الله أحمد على أن جعلني من علماء العربية؛ وجبلني على الغضب للعرب والعصبية، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وانحاز". (١)

هذه الروافد والينابيع رفدت العربية، وأفعمتها غناء ورخاء، وجعلت علماءها لا يتحرجون من اختراع الأسماء للمخترعات التي جدت في محيطهم الدنيوي، فما كادهم مصطلح وما عجزوا عنه قط. بيد أن هذا النشاط الفكري اللغوي اعتراه أمر غريب في العصور المتعاقبة، حيث توقف العطاء، وتعطل الفكر، وانحسر الاجتهاد اللغوي إلى الوراء يلوك ما قال الأوائل دون وعي ولا فهم، وسادت المقولة: "ليس في الإمكان أبدع مما كان" .. ومن هنا فإننا سنقتصر على المناحي التالية:

I - القياس اللغوي.

II - الاشتقاق.

III - الأخذ.

١ - الزمخشري: الفصل في علم العربية. مكتبة الخانقي مصر. غرة سنة 1323 هـ. ص 02

IV - الترجمة .

V - المصطلح .

VI - المعرب .

VII - المولّد .

VIII - المجامع اللغوية الحديثة .

I - القياس اللغوي :

تنبّه علماء اللغة العربية إلى أن الإحاطة بمفردات اللغة العربية وتراكيبها وأداءاتها المختلفة مستحيل سماعها كلها ؛ وذلك لأنها لا تخضع لقائمة مغلقة ومنتهية ؛ إذ الأفواه تدفع والآذان تسمع ، فتتوالد ألفاظ بكيفية تحكمية غريبة ، يعجز الفرد عن تعليلها واستيعابها ، فعمد علماء اللغة العربية إلى مقياس أطلقوا عليه مصطلح " القياس " مقابل " السماع " . وهو رافد هامّ لنموّ اللغات وتطورها ، إذ به يلحق الشبيه بالشبيه ، والنظير بالنظير بمساحة وعفوية لا نظير لهما .

وهذا مثال من القياس العفويّ نوره كما أثبتته ابن جني في مؤلفه العلمي " الخصائص " ، قال حاكيا : " حدثنا الخليل بن أسد النوشجانيّ قال : قرأت على الأصمعيّ هذه الأرجوزة للعجاج :

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسًا ؟

فَلَمَّا بَلَغْتَ : تَقَاعَسَ الْعِرْزُ بِنَا فَاقْعَنْسَسَا

قال لي الأصمعيّ : قال لي الخليل : أنشدنا رجلاً :

تَرَاغِبَ الْعِرْزُ فَارْفَنَعَا .

فقلت : هذا لا يكون . فقال : كيف جاز للعجاج أن يقول :

تَقَاعَسَ الْعِرُّ بِنَا فَأَقْعَنَسَا ؟ " . (١)

هذا القياس الساذج البسيط المتطور من رجل بدوي لا يعرف عن القياس اللغوي شيئاً هو الذي طوره اللغويون فقالوا في حده : " القياس في اللغة عبارة عن التقدير ، يقال : قست النعل بالنعل إذا قدرته و سويته ، وهو عبارة عن رد الشيء إلى نظيره " . (٢) تعريف مضبوط ، بيد أن القياس تقاسمه الفقهاء والأصوليون والمناطق . وما نقصده هو القياس اللغوي ، والذي وصفه ابن جنّي " بأنه موضع شريف ، وأكثر الناس يضعف عن احتماله... " .. و قد نص أبو عثمان المازني عليه ، فقال : " ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، ألا ترى أنك لم تسمع أنت ولا غيرك كل اسم فاعل ومفعول ، وإنما سمعت البعض فقست عليه غيره ، فإذا سمعت : قام زيد ، أجزت ظرف بشر ، وكرم خالد .

قال أبو علي : إذا قلت : " طَابَ الْخَشُكُنَانُ " . فهذا من كلام العرب ، بإعرابك إيّاه قد أدخلته كلام العرب " . (٣)

و هنا يدخل معنا في القياس : الحمل والأشباه والأنظار والأمثال ، و نتخلص من عقدة التقليد . و " قُلْ وَلَا تَقُلْ " . و " لَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ " ، إلى غير ذلك ففتتح باب القياس اللغوي علي مصراعيه " و من ذلك ما روي عن النبي (ﷺ) أن قومًا من العرب أتوه فقال لهم : من أنتم ؟ . فقالوا : نحن بنو غَيَّان ، فقال : بل أنتم بنو رُشْدَان . فهل هذا إلا كقول أهل الصناعة :

١ - ابن جنّي : الخصائص . ج ١ . ص 361 - 362

٢ - الجرجاني الشريف علي بن محمد : التعريفات . دار الكتب العلمية بيروت . لبنان 1416 هـ / 1995 م . ص 181

٣ - ابن جنّي : الخصائص . ج ١ . ص 357

إن الألف و النون زائدتان، وإن كان (الله) لم يتفوه بذلك . غير أن اشتقاقه إياه من الغي بمنزلة قولنا نحن : إن الألف والنون فيه زائدتان . وهذا واضح " . (١)

• حاجة علماء أصول الفقه للقياس :

إن اللسان العربي ظلّ منبعاً صافياً يتدفق عطاء، يغرف منه الفقهاء والقرّاء والنحاة والأصوليون ما يحتاجون إليه ، إذ كل واحد يأخذ ما يسدّ به غرضه . ومن هنا كانت علوم العربية في أصل نشأتها متكاملة فيما بينها . فلا غرابة أن يكون علماء الأصول سباقين إلى القياس أكثر من غيرهم لاحتياجهم إليه في أقيسة الأحكام بعضها من بعض . وقد برع في هذا الاتجاه محمد بن إدريس الشافعي (150 - 204 هـ) في كتابيه " الرسالة " ، وكتاب " الأم " لاهتمامه بعلم اللسان العربي . واعتباره الأساس المركزي للدراسات الفقهية واللغوية ، وغيرهما من العلوم الإسلامية ، فقال : " وإنما بدأت (٢) بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره ؛ لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب . أحد جهل سعة لسان العرب ، وكثرة وجوهه . وجفّاع معانيه وتفرّقها . ومن علمه انتفت عنه الشبهة التي دخلت على من جهل لسانها " . (٣)

يلاحظ على الشافعي بصفة عامة أنه يوظف مصطلح " اللسان " بدل اللغة اقتداءً بالنصوص القرآنية التي لم يرد فيها لفظ " اللغة " قط . فاكتمسب

١ - المرجع السابق نفسه . ص 250

٢ - بدأت : يعني أنه بدأ كتابه الرسالة التي هي في أصول الفقه بتعريف " اللسان العربي " لأنه من المستحيل أن يستنبط الأحكام الفقهية من جهل لسان العرب الذي نزل به القرآن لسنة وتتنوع وجوه واتحادها أحياناً .

٣ - الشافعي : الرسالة : تحقيق أحمد محمد شاكر . مصر 1309 هـ . ص 50

صفة العالم اللساني المؤسس لعلم اللسان العربي . ولعلّه أول من وظّف مصطلح " القياس " في اللغة وتوسّع فيه . وفصله عن الأخبار المتواترة نصاً من الكتاب والسنة . ففي حوار شيق يفترض فيه الشافعي ذكرنا عليه القياس اللغوي . فيقول :

" - فَبَيْنَ أَيْنَ قُلْتُ : يُقَالُ بِالْقِيَاسِ فِيمَا لَا كِتَابَ فِيهِ وَلَا سُنَّةَ وَلَا إِجْمَاعَ ؟ . أَفَالْقِيَاسُ (١) نَصٌّ خَبَرٌ لَازِمٌ ؟

- قُلْتُ : لَوْ كَانَ الْقِيَاسُ نَصًّا كِتَابِيًّا أَوْ سُنَّةً قِيلَ فِي كُلِّ مَكَانٍ : نَصٌّ كِتَابِيٌّ " هَذَا حُكْمُ اللَّهِ " . وَفِي كُلِّ مَا كَانَ نَصًّا السُّنَّةِ " هَذَا حُكْمُ رَسُولِ اللَّهِ " ، وَلَمْ نَقُلْ لَهُ قِيَاسٌ " .

- قَالَ : فَمَا الْقِيَاسُ ؟ أَهُوَ الاجْتِهَادُ ؟ أَمْ هُمَا مُفْتَرَقَانِ ؟

- قُلْتُ : هَذَا اسْمَانِ لِمَعْنَى وَاحِدٍ .

- قُلْتُ : فَمَا جَمَاعُهُمَا ؟

- قُلْتُ : كُلُّ مَا نَزَلَ بِمُسْلِمٍ فِيهِ حُكْمٌ لَازِمٌ ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ فِيهِ دَلَالَةٌ مُوجُودَةٌ ، وَعَلَيْهِ إِذَا كَانَ فِيهِ بَعِينُهُ حُكْمٌ (يَجِبُ) اتِّبَاعُهُ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ بَعِينُهُ طُلِبَ الدَّلَالَةُ عَلَى سَبِيلِ الْحَقِّ فِيهِ بِالْاجْتِهَادِ ، وَالْاجْتِهَادُ الْقِيَاسُ " . (٢)

ليس القياس عند الشافعي مهيباً مباحاً لكلّ من هبّ ودبّ ، أو قلّد وانتسب ، وإنما هو منهج لا يطرّقه إلا مَنْ ملك آلة القياس العلمية . فهو يقول : " وَلَا يُقَيَّسُ إِلَّا مَنْ جُمِعَ الْآلَةُ الَّتِي لَهُ الْقِيَاسُ بِهَا ، وَهِيَ الْعِلْمُ بِأَحْكَامِ كِتَابِ اللَّهِ : فَرَضِهِ ، وَأَدْبِهِ ، وَنَاسِخِهِ وَمُنْسُوخِهِ . وَعَامَهُ وَخَاصَّهُ ، وَإِرْشَادِهِ .

^١ - تعليق شاكر : هذا استفهام واضح . ومعناه بيّن . ولكن الناسخين لم يفهموه فلم يحسنوا قراءته .

^٢ - المرجع السابق نفسه : ص 476 - 477

ويقول أيضاً : " ولا يكون لأحد أن يقيس حتى يكون عالماً بما مضى قبله من السنن ، وأقاويل السلف . وإجماع الناس ، واختلافهم ، ولسان العرب . ويستطرد قائلا : " وكذلك لو كان حافظاً مقصّر العقل ، أو مقصراً عن علم لسان العرب ، لم يكن له أن يقيس ، من قبل نقص عقله عن الآلة التي يجوز بها القياس " . (١)

إن هذه العفوية في القياس الناجمة عن السليقة العربية والواعية للآلة التي يستنبط بها - يعني اللسان العربي - أدركها التكلف وأصبح القياس له أركان أربعة :

1 - المقيس .

2 - المقيس عليه .

3 - العلة .

4 - الحكم .

هكذا تتعدّد القياس وتمنطق في قوالب أرسطو طاليسية ، فسُدّ باب الاجتهاد الذي هو القياس في منظور الشافعي ، ففقد اللسان العربي ليونته وسيولته التي هي ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم " . وظل على هذا الوضع إلى أن استفاق العرب من غفلتهم في عصر النهضة ، وكُونوا المجامع اللغوية فأعادوا للقياس دوره في تنمية اللسان العربي ، فأباحوا القياس (٢) ، ووسّعوا فيه ، كما سنرى بعد ، وفق طبيعة اللسان العربي . هذا هو موقف علماء أصول الفقه ..

١ - الشافعي : المرجع السابق نفسه . ص 509 - 510 - 511

٢ - صدر قرار " القياس " في ج 8 ، مؤتمر الدورة الثلاثين سنة 1964 ، بمجمع اللغة العربية بالقاهرة .

- فماذا عن علماء النحو واللغة ؟ وما موقفهم من " القياس " ؟

فلا ريب أن الهدف الذي يسعى إليه علماء الأصول من القياس يباين المعنى الذي يرمي إليه علماء اللسان العربي ، أولئك يؤصلون تشريع الأحكام الفقهية ، يعني المعاملات الاجتماعية التي تنشأ بسبب الخصومات بين الأفراد والجماعات في البيع و الشراء والزواج والطلاق والسلم والحرب وغيرها . وكلها تحتاج إلى قوانين تضبطها مستنبطة من القرآن الكريم الذي وصفه الله مرة " بحكم عربي " ، فقال في سورة الرعد : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ . (١) ومرة أخرى " بلسان عربي مبين " ، فقال في سورة الشعراء : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ . (٢)

أما علماء اللسان العربي فإنهم يؤصلون أصول العربية ومقاييسها ومجاريها . فكان القياس مرتبطا بنشأة علم النحو العربي . فهذا ابن سلام يقول عن أبي الأسود الدؤلي (ت 67 هـ) إنه " كان أول من أسس العربية ، وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع قياسيها " . (٣)

ويقول عن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت 117 هـ) إنه " كان أول من بعج النحو ، ومنذ القياس والعلل ، وكان معه أبو عمرو بن العلاء ، وبقي معه بقاء طويلا . وكان ابن أبي إسحاق أشد تجريدا للقياس : وكان أبو عمرو أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها " . (٤)

هذه أقوال وآراء حفظتها لنا كتب الطبقات والمعاجم ، تمتاز بدقة فائقة

١ - الآية 37

٢ - الآية 37

٣ - ابن سلام الجُمَحي : طبقات فحول الشعراء . مطبعة المدني القاهرة . السفر الأول . بدون تاريخ . ص 12

٤ - المرجع السابق نفسه . ص 14

تتطلب من الدارسين لها قسمة علمية، فتقول ابن سلام عن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي: "إنه أول من بعج النحو وادّعى العلم"، وأنه أشد تجريداً من أبي عمرو بن العلاء الذي كان أوسع علماً بكلام العرب ولغاتها دليل على تطور المصطلح اللغوي للدراسات اللسانية العربية. فمدّ القياس معناه بسطه وتوسّع فيه. فالقياس رافد خطير لترقية اللغة العربية وتنميتها.

أما سيبويه فإنه يطلق على القياس مصطلح "النظير" الذي يجمع على "نظائر". فيقول: "هذا باب نظائر: ضَرَبَتْهُ ضَرْبَةً، وَرَمَيْتُهُ رَمِيَةً". وهذا نظير ما ذكرنا من بنات الأربعة. وما ألحق ببنائها من بنات الثلاثة^(١).

لهذا كانت مصطلحاته: "الأشباه"، و"النظائر". و"المجاري"، و"المنازل"، و"الأمثلة"، و"الأبنية"... لأن كلام العرب واسع لا يستطيع فرد واحد أن يحيط به. فيقول الشافعي: "لأن لسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه.

والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلا جمع السنن، فلم يذهب منها عليه شيء"^(٢).

وترتب على هذا الاتجاه العلمي الذي يعتمد النظر والشبيه مقارنة دلالية تربط بين اللفظ ومؤداه. أساسها "السماع" و"القياس" في جدلية علمية. فقالوا: إن مصادر الأفعال المزیدة، وأسماء الفاعلين والمفعولين فيها كلها سماعية. يعني أنك إذا عرفت نظيراً من هذه النظائر وصلت إلى باقي المشتقات بكل سهولة. قال عنها ابن جنّي: "وحكى لنا أبو علي عن ابن الأعرابي أنه قال: يقال: ذَرَمَتِ الْخُبَّازَى؛ أي صارت كالدرهم، فاشتق من الدرهم، وهو اسم أعجمي. وحكى أبو زيد: رَجُلٌ مُدْرَمٌ، قال:

١ - سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج 4، ص 86 - 97

٢ - الشافعي: "الرسالة". مرجع سابق، ص 42

ولم يقولوا منه : ذُرْهُمْ . إلا أنه إذا جاء اسم المفعول فالفعل نفسه حاصلٌ في الكفّ " . (١)

أما الأفعال الثلاثية المجردة فمصادرها كلها سماعية ، ومع ذلك فقد ضبطوا مقاييس لها معتمدين المعنى والدلالة لتقريب ذلك على طالب علم اللسان العربي ، وهي مبسّطة في كتب النحو العربي ، يتدارسها الناس ، سابقا عن لاحق . مراعين في ذلك ما تواتر عن العرب لأنها " تؤثّر من التجانس والتشابه ، وحمل الفرع على الأصل ، ما إذا ما تأملته عرفت منه قوّة عنايتها بهذا الشأن ، وأنه منها على أقوى بال " . (٢)

لقد تفتّن الخليل بن أحمد إلى أن اللغة أنظمة من البنى المشتبلة على معان ودلالات ، فاخترع معيارا سمّاه " المستعمل " و " المهمل " ، فما أفاد معنى اعتبره . وما لم يفد ألغاه ، واتبعه الحدّاق من علماء اللغة العربية ، فلمسوا أن الألفاظ تتوالد وتنمو وتتطوّر ، فتتدرّج في علوّ وتنحطّ في استفال باستهلاك الاستعمال وقلّته . فحياتها بكثرة استهلاكها ، وموتها في التخلّي عن استعمالها ، فعادوا إلى الواقع اللغوي يستقصونه إحصاء من أفواه الناطقين باللسان العربي ، فما كثر تردّده سموه مطردا ، وما قلّ سموه شاذّا . لأن أصل مادة (طرد) في كلام العرب " القتابع و الاستمرار " . وأصل مادة (ش ذ ذ) " التفرّق والتفرّد " ، فنزلوا كلام العرب منازل أربع وفق " السماع " و " القياس " و " الشذوذ والاطراد " .

وفي تصوّرنا أن هذا الضابط أهمّ رافد لنموّ اللغة العربية وتطوّرها ، إذ يلاحظ أن علماءنا الأوائل لم يستعملوا مصطلحي " الصواب والخطأ " وإنما وظّفوا الاطراد والشذوذ ، والكثرة والقلّة ، منذ سيبويه الذي يوظف " لغة جيّدة " ، ولغة عربية ، و " لغة فصيحة " ، ولا يرى نقصا في من يستعمل

١ - ابن جنّي : الخصائص . ج ١ . ص 358

٢ - المصدر السابق نفسه ، ج ١ . ص 111

" لغة رديئة" . قال ابن جني . " فإذا كان الأسر في السنة الممّول عليها هكذا . وعلى هذا فيجب أن يقلّ استعمالها ، وأن يتخفّر . هو أقوى وأشيع منها ، إلا أن إنسانا لو استعملها لم يكن مخطئا لكلام العرب ، لكنه كان مخطئا لأجود اللغتين" . (١)

وذلك لأن العالم اللغوي الضليع في علم اللسان البشري يعمد إلى الاستقراء والتتبع لمجاري الكلام المراد دراسته ، وهذا ما انتهجه العلماء العرب الأصلاء .

و يا ليت علماءنا المعاصرين اقتدوا بهذا المنهج العلمي السليم . إذا ما أكثر الألفاظ السليمة و الأساليب المستقيمة التي تجري على ألسنة الناس في المجتمع الجزائري . ولم تجد مدخلا إلى بطون الكتب المؤلفة للتدريس في المدارس الابتدائية والثانوية والجامعية . فكيف تنمو العربية في الجزائر وتتطور إذا لم نعد للواقع اللغوي الجزائري الأصيل .

هذا ، ولئن كان الخليل بن أحمد اخترع مصطلحي " الاستعمال" ، و" الإهمال" فإن ابن جني وظف " الاطراد والشذوذ" ، ومردّ الأمرين واحد وغايتهما واحدة.

وعليه فلنعمد الآن إلى المنازل الأربع ، كما أثبتها ابن جني الذي يقول : " أصل مواضع (طرد) في كلامهم - أي العرب - " التتابع والاستمرار" من ذلك : طردت الطريدة ، إذا اتبعتها واستمرت بين يديك . ومنه : مطاردة الفرسان بعضهم بعضا : ألا ترى أن هناك كرا وفرا ، فكلّ يطرد صاحبه وأما مواضع (ش ذ ذ) في كلامهم فهو التفريق والتفرد " . (٢)

مما يمتاز به العلماء العرب عودتهم إلى الأصول العامة المادية للكلم : ثم يطبقونها على الأصوات المجردة التي لا وزن لها ولا لون . ولكنها مسموعة

^١ - المصدر السابق نفسه . ج 2 . ص 121

^٢ - المصدر السابق نفسه . ج 1 . ص 111

بالآذان منطوقة باللسان ، لذلك عقب ابن جني على هذين الأصلين بقوله :
 " هذا أصل هذين الأصلين في اللغة ، ثم قيل ذلك في الكلام والأصوات على
 سمته وطريقه في غيرهما ، فجعل أهلُ عِلْمِ العرب ما استمرَّ من الكلام في
 الإعراب وغيره من مواضع الصناعة مطرداً ، وجعلوا ما فارق ما عليه بقية
 بابه ، وانفرد عن ذلك إلى غيره شاذاً ، حملاً لهذين الموضعين على أحكام
 غيرهما .

ثم اعلم من بعد هذا أن الكلام في الاطراد والشذوذ على أربعة
 أضرب " . ()

1 - الضرب الأول : المطرد في القياس والاستعمال ، قال عن : " وهذا
 هو الغاية المطلوبة والمثابة المنوبة . وذلك نحو : قام زيدٌ ، وضربتُ عمراً ،
 ومررتُ بسعيد " . وهذا هو الكلام المطرد المتعارف عليه جميع الناطقين
 بالعربية . ويستعملونه بكل بساطة وعفوية لخضوعه على ما تواطأ عليه العرب
 في مخاطباتهم العادية لذلك سمّاه سيبويه " بالكلام المستقيم الحسن " ، ومثّل له
 بقوله : " أثبتك أمس ، وسأتيك غدا " .

وقد أطلق الأستاذ الدكتور عبد الرحمن حاج صالح على هذا النمط من
 التعبير مصطلح " القصيح " ، ويعني به الكلام السليم والخالي من كل تعقيد ،
 المفهوم لدى الخاصّ والعام ، فقال : " العربية الفصحى طور من أطوار العربية
 حظيت بانتشار عجيب وبقاء أعجب ، وذلك بفضل القرآن ، فكيف كان
 اللغويون يحدّدونها . وما هي المقاييس التي اعتمدوا عليها في إقامة ما سمّوه
 فصيحاً ، وتمييزه مما ليس كذلك " . (2)

هذا الصنف من الكلام هو السائد في مخاطبات الناس بعضهم بعضاً

1 - المصدر السابق نفسه - ص 97 . مع

2 - حاج صالح عبد الرحمن : من محاضرات في علم اللسان العربي . ألقاها على طلبة
 اليسانس - سنة 1966 .

عندنا ، فجَلَّ الجزائريين يعرفون أن "القنطرة" و "المرسى" ، لكن المشرع المدرسي استخدم مصطلحي "الجسر" و "الميناء" ، فاستبدلهما رجل الشارع بالمصطلحين الأجنيبيين هما على التوالي : (Pont) و (Port) . هذا الغلو في استعمال الغريب يعطل عملية التطور والنمو ، وإن كان سليما لكنه ليس متداولاً في الفئات الاجتماعية إلا عند الخاصة لندرته .

2 - الضرب الثاني : هو المطرد في القياس الشاذ في الاستعمال " وذلك نحو الماضي من : يَذَرُ وَيَدَعُ . وكذلك قولهم : " مَكَانٌ مُبْقِلٌ .. هذا هو القياس . والأكثر في السماع (بَاقِلٌ) " . (١)

هذا الوزن ثابت بالقياس إذا حمل على نظيره (وضع) الذي توقفت فيه الصيغ الثلاث (وَضَعَ يَضَعُ ضَعُ) . لكن الفعلين (يَذَرُ و ذَرَا و يَدَعُ و دَعَا) فإن ماضييهما تخلف مع اقتضاء القياس لهما . والغريب في الأمر أن هاتين الصيغتين ما زالتا مستعملتين بكثرة إلى يومنا هذا ، بخاصة الأمر من الذي هو (دَعَا) . فما زلنا نسمع ونقرأ : دَعَا عَنْكَ هَذَا ، أو دَعَانِي أَقُولُ لك .. إلخ

ومما يلحق بهذا الضرب في عصرنا هذا كثرة استعمال (مُفْلِتٌ لِلنَّظَرِ) بدل (الْأَفْتِ لِلنَّظَرِ) الذي هو القياس لاسم الفاعل من الفعل الثلاثي المجرد (لَفَتَ) . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ ﴾ . (٢)

ومما هو كثير في الاستعمال مطرد في القياس قول العامة : (البَابُ مَغْلُوقٌ) وقياسه : (البَابُ مُعْلَقٌ) ، لأنه اسم مفعول لفعل ثلاثي مزيد بالهمز، وبابه القياس ، كما رأينا آنفاً .

3 - الضرب الثالث : هو " المطرد في الاستعمال الشاذ في القياس " ،

١ المصدر السابق نفسه ، وكذا الصفحة .

٢ - سورة هود : الآية ٨١

نحو قولهم : أَخُوَصَ الرَّمْثُ^(١) . وَاسْتَهْوَيْتُ النَّارَ^(٢) .

وهاهنا تتنازع الفصاحة مع القياس ، إذ عُرِبَ بِرَمْسِ التَّخْلُافِ فَصِيحَةً رَمَّمْ خُرُوجَهُ عَنِ الْقِيَاسِ الْمَتَوَاطِئِ عَالِيَهُ : مِنْ ذَلِكَ عَصَى (مَآ) الَّذِي يَرْفُضُهُ التَّيْمِيمِيُّونَ لِأَنَّهُمَا لَا تَخْتَصِمُ بِنَمَطٍ مُعَيَّنٍ مِنَ التَّرَاكِيِبِ ، فَهِيَ عِنْدَهُمْ كَهَمْزَةِ الْاِسْتِفْهَامِ وَ (هَلْ) ، فَهُمَا حَرْفَانِ لَا يَمَعْلَانِ شَيْئًا لِعَدَمِ تَخَصُّصِهِمَا بِضَرْبٍ مُعَيَّنٍ ، فَأَنْتَ تَقُولُ : هَلْ حَضَرَ الْأُسْتَاذُ ، كَمَا تَقُولُ : هَلِ الْأُسْتَاذُ حَاضِرٌ ؟ .. يُمَيِّدُ أَنَّ الْحِجَازِيِّينَ يَشَبِّهُونَهَا بِ (لَيْسَ) فِي النِّفْيِ وَالْعَمَلِ ، فَتَعْمَلُ عَمَلَهَا عِنْدَهُمْ ، فَتَرْفَعُ الْمُبْتَدَأَ وَيُسَمَّى اسْمُهَا ، وَتَنْصَبُ الْخَبَرَ وَيُسَمَّى خَبَرُهَا ، وَهِيَ اللُّغَةُ الْفَصِيحَةُ لِرُودِ الْقُرْآنِ بِهَا ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ يُوسُفَ : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا ﴾^(٣) . وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ فِي سُورَةِ الْمَجَادِلَةِ : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾^(٤) .

إِنَّ هَذَا الْفَصَاحَةَ وَالْإِطْرَادَ فِي الْاِسْتِعْمَالِ لَا يُخَوِّلَانِ الْقِيَاسَ عَلَى مَا وَرَدَ فِيهِمَا مِنْ مَسْمُوعِ الْكَلَامِ . " أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا سَمِعْتَ : اسْتَحُوذَ وَاسْتَصُوبَ اذْيَتَهُمَا بِحَالِهِمَا ، وَلَمْ تَتَجَاوَزْ مَا وَرَدَ بِهِ السَّمْعُ فِيهِمَا إِلَى غَيْرِهِمَا ، أَلَا تَرَكَ لَا تَقُولُ فِي (اسْتِقَامَ) : اسْتَقُومَ ، وَلَا فِي (اسْتِسَاعَ) : اسْتَسَوِّغَ ، وَلَا فِي (اسْتِبَاعَ) : اسْتَبِيعَ ، وَلَا فِي (أَعَادَ) : أَعُودَ ، لَوْ لَمْ تَسْمَعْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، قِيَاسًا عَلَى قَوْلِهِمْ : أَخُوَصَ الرَّمْثُ . فَإِنْ كَانَ الشَّيْءُ شَاذًا فِي السَّمَاعِ مَطْرُودًا فِي الْقِيَاسِ تَحَامَيْتَ مَا تَحَامَتِ الْعَرَبُ مِنْ ذَلِكَ ، وَجَرِيتَ فِي نَظِيرِهِ عَلَى الْوَاجِبِ فِي أَمْثَالِهِ ، مِنْ ذَلِكَ امْتِنَاعُكَ مِنْ : (وَذَرَ) ، وَ (وَدَعَ) ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوهُمَا .

^١ - الرَّمْثُ : شَجَرٌ يَنْبِتُ فِي الصَّحْرَاءِ الْجَزَائِرِيَّةِ - تَرَعَاهُ الْإِبِلُ - مَعْرُوفٌ جَدًّا بِهَذَا الْاِسْمِ . يَعلُوهُ عَسَلُوحٌ نَاعِمٌ إِذَا كَانَتْ السَّنَةُ خَصِيَّةً .

^٢ - الْمَصْدَرُ السَّابِقُ نَفْسُهُ - وَكَذَا الصَّفْحَةُ .

^٣ - الْآيَةُ ٣١

^٤ - الْآيَةُ ٥٢

ولا غَرَوْ عليك أن تستعمل نظيرهما : من نحو : (وَزَنَ) و (وَغَدَ) ، لولم تسعمهما " . (١)

٤ - الضَّرْبُ الرابع : هو " الشاذ في القياس والاستعمال جميعا . وهو كتنميم مفعول فيما عينه واو ؛ نحو : ثوبٌ مصوونٌ ، ومسلٌ مدووفٌ (٢) . وحكى البغداديون : فرسٌ مقوودٌ ، ورجلٌ معوودٌ من مرضه . وكل ذلك شاذ في القياس والاستعمال . فلا يسوغ القياس عليه ، ولا رُدُّ غيره إليه ، ولا يحسن أيضا استعماله فيما استعملته فيه إلا على وجه الحكاية " . (٣)

إن هذا العرض الوافي لأقطاط القياس والاستعمال ، وما يتعلق بهما من شذوذ وأطراد لجدير بنا أن نستشف المقاصد والأغراض ، وأن نعتمدها في تنعيع اللغة العربية وإثرائها . إذ الألسن تقذف بالألفاظ التي لا لون لها ، ولا وزن ، ولا رائحة ، وإنما تدرك بحاسة السمع ، ونعي دلالاتها بالتواضع والسياق والمقام ، ونقيس بنيتها على النظائر والأشباه ، وفصاحتها على كثرة التداول والشيوع بين الناطقين باللسان المراد دراسته .

II - الاشتقاق :

من المعارف عليه لدى علماء العربية أن الألفاظ منها ما يقبل التشقيق والتنويع بالزيادة والنقصان ، ومنها ما هو جامد لا يتحلل ، ولا يتحوّل عن بنيته ، تبعا للدلالات المتوخاة منه . وقد تنبّه العلماء العرب إلى هذه الديناميكية ، واستغلوها لمعرفة الأصل والفرع ، والجوهر والهيئة . فكان أن حصل بين التصريف والاشتقاق تداخل لما بينهما من نسب متين ،

١ - المصدر السابق نفسه ، ص 99 ، ج 1

٢ - أي مخلوط أو مبلول .

٣ - المصدر السابق نفسه ، 98 - 99 ، ج 1

فكثر التأليف في التصريف الذي هو قسيم النحو، و قلُّ في الاشتقاق الذي هو أقعد في اللغة .

يقول ابن جنِّي في شرحه لكتاب التصريف للمازني : " إن التصريف وسيطة بين النحو و اللغة، و الاشتقاق أقعد في اللغة كما أن التصريف أقرب إلى النحو من الاشتقاق " . (١)

و يعرف طاش كُبرى زاده الاشتقاق بأنه " العلم الباحث عن كيفية خروج الكلم بعضها عن بعض بحسب مناسبة بين المخرج والخارج بالأصالة و الفرعية، و باعتبار جوهرها، و إنما ذكرنا هذا القيد إذ يبحث في الصرف أيضا عن الأصالة و الفرعية بين الكلم لكن لا بحسب الجوهرية بل بحسب الهيئة ... ثم يقول : " واعلم أن مدلول الجواهر بخصوصها يعرف من اللغة، وانتساب البعض إلى البعض على وجه كليّ، إن كان في الجوهر فلاشتقاق، وإن كان في الهيئة فالصرف " . (٢)

إذن فمنشأهما واحد، وجوهرهما مفرد وهو اللغة بصفة كلية، فإن عاد المراد إلى الجوهر فاشتقاق، وإن عاد إلى الهيئة فصرف، وهي عملية منهجية محضة لما بينهما من الاتصال الشديد والتكامل المفيد؛ وذلك " لأن التصريف إنما هو أن تجيء إلى الكلمة الواحدة فتصرفها على وجوه شتى ، مثال ذلك أن تأتي إلى (ضَرَبَ)، فتبني منه مثل (جَعَفَ) ؛ فتقول : (ضَرَبَ) ، ومثل : (قَمَطَ) : (ضَرَبَ)، ومثل (بَرَهَمَ)، فتقول : (ضَرَبَ)، ومثل : (عَلِمَ) : ضَرَبَ ، و مثل (ظَرَفَ) ، فتقول : (ضَرَبَ) . أفلا ترى إلى تصرفك الكلمة على وجوه كثيرة . وكذلك الاشتقاق أيضا، أفلا ترى أنك تجيء إلى

١ - ابن جنِّي : المنصف ؛ شرح كتاب المازني في التصريف مطبعة مصطفى البابي - مصر . [د.ت.] ، ط ١ . ج ١ ، ص 3 .

٢ - طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة، و مصباح السيادة. ج ١. ص 126. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان . بدون تاريخ.

(الضَرْب) (١) الذي هو المصدر، فتشتق منه الماضي (ضَرَبَ) ، ثم تشتق منه المضارع ، فتقول : (يضرب) ، ثم تقول في اسم الفاعل : (ضَارِبٌ) . وعلى هذا ما أشبه هذه الكلمة " . (٢)

هذا المفهوم النامي للاشتقاق والمرتبط بعلم الصرف هو الذي ركز عليه علماء النحو العربي الأقدمون ، ووجدوا فيه متسعاً وفضاء لكل ما جد في حياتهم اليومية السياسية منها والثقافية والسلطانية ، فتيسرت لهم ترجمة الدخيل وتعريبه إن عسر عليهم النظر والمثيل دون أن تظهر أي شائبة عليه .

وانصبت أعمالهم على المشتقات التي هي :

1 - المصدر و أنماطه ، الثلاثية والرباعية والخماسية والسداسية ، المسموع منها والمقيس .

2 - اسم الفاعل و أنماطه ، من الثلاثي المتعدي واللازم، والرباعي والخماسي والسداسي ، مع إضافة صيغ المبالغة من الفعل الثلاثي ، مراعين الأداء والدلالة في كل موضع . حيث يعتقد كثير من الباحثين أنها في درجة واحدة من التبليغ . لكن المحققين من أهل العربية يقولون : " لا يجوز أن تختلف الحركتان في الكلمتين ومعناها واحد . قالوا : فإذا كان الرجل عدّة للشيء قيل فيه (مُفْعِلٌ) ، مثل : مُرْجِمٌ ، وَمُحَرَّبٌ . وإذا كان قويا على الفعل قيل : (فَعُولٌ) ، مثل : صَبُورٌ و شَكُورٌ . وإذا فَعَلَ الفعلَ وقتاً بعد وقتٍ قيل (فَعَّالٌ) ، مثل : عَلَامٌ و صَبَّارٌ . وإذا كان ذلك عادة له قيل (مِفْعَالٌ) ، مثل : مِعْوَانٌ و مِعْطَاءٌ و مِهْدَاءٌ .

ومن لا يتحقق المعاني يظن أن ذلك كله يفيد المبالغة فقط . وليس الأمر

١ - هذا هو رأي البصريين ومذهبهم ، أما الكوفيون فخالقوهم في رأيهم ، ورأوا أن الفعل هو الأصل ، ونحن لا حاجة لنا بهذا الاختلاف .

٢ - ابن جني : المنصف ؛ شرح التصريف للمازني ، تحقيق إبراهيم مصطفى و عبد الله أمين ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر . [د.ت] . ج ١ ، ص 40 .

كذلك ، بل هي مع إفادتها المبالغة تفيد المعاني التي ذكرناها " . (١)

3 - اسم المفعول و صيغته المختلفة ، من الفعل الثلاثي اللازم والمتعدي ، كل واحد وهيئته الخاصة به ، وكذا السالم والمعتل ، والمثالي والأجوف والناقص .

4 - الصفة المشبهة وهيئتها ودلالاتها الثابتة ، غير المتغيرة ومظان اشتقاقها .

5 - اسم التفضيل والأفعال التي يشتق منها ، والتي لا يصح أن يشتق منها .

6 - أسماء الأزمنة والأمكنة وأبنيتهما .

7 - أسماء الآلة والأداة والفرق بينهما .

هذه التشقيقات تنحدر من أفواه الناطقين باللسان العربي بعفوية تامة دون مشقة ، وعلماء اللغة هم الذين يعللون ويحللون ، حيث نرى ابن جني يقول إن " هذا القبيل من العلم ، يعني التصريف ، يحتاج إليه جميع أهل العربية أتم حاجة ، وبهم إليه أشد فاقة ، لأنه ميزان العربية ، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها ، ولا يوصل إلى معرفة أصول الاشتقاق إلا به .

وقد يؤخذ جزء من اللغة كبير بالقياس ، ولا يوصل إلى ذلك إلا من طريق التصريف ، وذلك نحو قولهم : إن المضارع من (فعل) لا يجيء إلا على (يفعل) بضم العين ، ألا ترى أنك لو سمعت إنسانا يقول : كرم يكرم) ، بفتح الراء من المضارع لقضيت بأنه تارك لكلام العرب ، سمعتهم يقولون (يكرم) أو لم تسمعهم . لأنه إذا صح عندك أن العين مضمومة من الماضي قضيت بأنها مضمومة في المضارع أيضا قياسا ، ولم تحتج إلى السماع في هذا ونحوه . وإن كان القياس أيضا ممّا يشهد بقياسك .

^١ - ابو هلال العسكري : الفروق اللغوية . دار الآفاق الجديدة بيروت 1979 . ص 16

ومن ذلك أيضا قولهم : إن المصدر من الماضي إذا كان على مثال (أفعل) يكون (مُفَعَّلًا) بضم الميم وفتح العين ، نحو : أَدْخَلْتُهُ مُدْخَلًا ، وَأَخْرَجْتُهُ مُخْرَجًا . ألا ترى أنك لو أردت المصدر من (أَكْرَمْتَهُ) على هذا الحد لقلت (مُكْرَمًا) ، ولم تحتج فيه إلى السماع .

وكذلك قولهم : كل اسم كانت في أوله ميم زائدة مما ينقل ويعمل به فهو مكسور الأول ، نحو : مطرقة ، ومروحة ، إلا ما استثنى من ذلك . فهذا لا يعرفه إلا من يعلم أن الميم زائدة ، ولا يعلم ذلك إلا من طريق التصريف . فهذا ونحوه مما يستدرك من اللغة بالقياس " . (١)

يلاحظ على هذا النص المستشهد به ملاحظتان :

• الأولى : تضافر الروافد :

إن هذه الروافد التي أسسنا عليها بحثنا واعتبرناها منطلقات لتطور اللغة العربية ونمائها متكاملة سواء في ذلك القياس الذي ألعنا إليه آنفا أو التصريف أو الاشتقاق الذي نعالجه في هذا المقام ، أو ما سيأتي من روافد كالنحت والتوليد والاصطلاح والمعرّب والحقيقة والمجاز ، فعلى هذا الأساس يجب أن تتضافر هذه الآليات الدالة على شجاعة العربية وقدرتها على الاستيعاب لكل ما يجد في نواحي الحياة الدنيوية .

• الملاحظة الثانية : قوة السليقة العربية عند الجزائريين .

إن البدوي الجزائري الذي لا يعرف طريق التصريف والاشتقاق يقول بدءاً : " المهرز ، والمطرقة ، والمذباع ، والمقص " بكسر الميم دون أن يدري أن هذه الميم زائدة ، ويقول في الأشياء الثابتة والمستقرة التي لا تنقل ولا يعتمل بها " مدرج ، ومصطبة ، ومزرعة ، ومراقبة ، ومنازة " ، دون علم بضوابط علماء

١ - ابن جني : المنصف ؛ شرح التصريف للإمام المازني . ج 1 ، ص 02

اللسان العربي المقيدة بضرورة زيادة الميم . والتفريق بين ما ينقل وما لا ينقل وفق ما يرى ابن جني العالم بخصائص العربية الذي يقول : " ومن ذلك قولهم للسُّلَم : مِرْقَاةٌ ، وللدَّرَجَة : مِرْقَاةٌ . فنفس اللفظ يدلّ على الحدث الذي هو الرقي ، وكسر الميم يدلّ على أنها مما ينقل ويعتمل عليه وبه ، كالمِطْرَقَة و المِئْزَر و المِنْجَل . وفتحة ميم (مِرْقَاة) تدلّ على أنّه مستقرٌّ في موضعه ، كالمَنَارَة و المَثَابَة ، ولو كانت المنارة مما يجوز كسر ميمها لوجب تصحيح عينها . وأن تقول فيها : مَنُورَة ، لأنه كانت تكون حينئذ منقوصة ، من مثال (مِفْعَال) كَمِرْوَحَة و مِسُورَة (١) ، و مِعُول و مَجُول (٢) ، فنفس (ر ق ي) يفيد معنى الارتقاء ، وكسرة الميم وفتحتها تدلان على ما قدمناه ، من معنى الإثبات أو الانتقال " . (٣)

هذا الانضباط و التعليل الذي أتى به ابن جني يخصّ عالم العربية ، لكن العربي البسيط تتفتّق هذه الصيغ والأمثلة من (فيه) بسليقة متمكّنة في جبلته الفطرية دون اللجوء إلى الانتحال والتمحلّ لما بين اللغة و الفكر من ترابط متين ، وتلاحم مستقيم .

إن المقاصد التي رامها العلماء العرب من دراسة الاشتقاق ليست هي المقاصد التي نرومها ونسعى إلى تحقيقها ، فهم أوقفوا أعمالهم اللغوية على الدراسة الوصفية الاستقرائية ، وهو عمل ترتضيه المذاهب القديمة والحديثة للعلوم اللسانية ، لأنهم كانوا يؤسسون علما لغويا للسان العربي الذي لم تكن له قوانين علمية مكتوبة ولا ضوابط مسطورة في سجلّ الكتاب ، لذلك سلكوا مسالك الاستيعاب والتتبّع .

١ - مِسُورَة : مُتَكَأ من الجلد .

٢ - مَجُول : ثَوْب للنساء أو للصغيرة منهنّ .

٣ - ابن جني : الخصائص ، مطبعة دار الكتب المصرية 1376 هـ / 1956 م . ج 3 ، ص

أما نحن فنرمي من وراء دراستنا هذه تبیین آليات التطور التي تسهل عملية النمو والارتقاء للغة العربية، ومسايرتها لما يجد في الآفاق بفضل الاشتقاق والتصريف والتوليد إلى غير ذلك.

وهذا ما قامت به المجامع اللغوية العربية الحديثة التي انطلقت من التراث العلمي للسان العربي مركزة على أساسيات العربية وشجاعتها، فبعثت ما قدّم من ألفاظها حتى تتلاءم مع المعاني المستحدثة، فتتناولها الألسن والأقلام، فتشيع في الصُحف والمجلات والسينما والتلفزة، وفي الكتاب المدرسي، والخطب الأسبوعية والمساجد والمحافل السياسية، فتصبح مألوفاً لطيفة ومقبولة لدى الخاصّ والعام، في الشارع والبيت والباعة.

إن هذا العمل العلمي الجادّ هو الذي يفرق بين ما نصبو إليه من جعل اللغة العربية لغة نامية متطورة قابلة لمبدأي التآثر والتأثير، فاعلة ومنفعلة، مثلها مثل كل اللغات البشرية التي حدّها ابن جنّي بقوله: "إنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم".^(١) إنه نفس المفهوم لدى العلماء اللسانيين المحدثين الذين يقولون: "إن اللغة مؤسسة اجتماعية" فاستبدلوا بالقوم "المجتمع"، وما أضافوا شيئاً سوى أنهم فرّقوا علم اللغة كصناعة والملكة اللغوية كأداة، وهو ما اهتدى إليه ابن خلدون من قبل، فقال: "إن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة، فهو علم بكيفية، لا نفس كيفية، فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً، ولا يحكمها عملاً. مثل أن يقول بصيرٌ بالخياطة غير مُحَكِّمٍ لملكته في التعبير عن بعض أنواعها: "الخياطة هي أن تدخل الخيط في خُرّت الإبرة، ثم تغرزها في لفقي الثوب مجتمعين، وتخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا.. ثم تردّها إلى حيث ابتدأت، وتخرجها قدام منفذها الأول

١ - ابن جنّي: الخصائص - ج ١، ص 34

بمطرح ما بين الثقبين الأولين، ثم يتمادى على وصفه إلى آخر العمل ، ويعطي صورة الحبك والتثبيت والتفتيح ، وسائر أنواع الخياطة وأعمالها ، وهو إذا طُلب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئا " . (١)

إن هذه النظرة العلمية من ابن خلدون الذي يفرّق بين التنظير والتطبيق لجدير بنا أن نعيها، ونوليها عناية خاصّة، إذ هي الطريق الأمثل لتليين العمل اللغوي الذي هو عبارة عن الصناعة الماديّة، وذلك لأن النظام اللغوي للعربية، كما لغيرها، تحكمه قوانين مضبوطة ليست من الملكة اللسانية في شيء . وقد أحسن حين ضرب لنا مثلا بمعلّم الخياطة الذي يحسنها نظريًا ، فإذا طُلب منه تطبيق هذه المقاييس عجز عن أدائها .

ولعلّ هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل العربية تتجمّد عند أصحاب المتون والمنظومات الذين جاؤوا في عصور الانحطاط ، فأثقلوا مؤلفاتهم بالقوانين والأحكام والتعليلات والخلافات التي لا تجدي صاحبها نفعًا ولا نطقًا .

والحقيقة أن هذه المنهجية مازالت في أغلب دروس " العربية " إلى يومنا هذا . ففقهاء العربية هم أعجز الناس عن استعمالها لاهتمامهم بالقوانين الصناعيّة التي هي كصفات الملكة وليست الملكة نفسها .

" إن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علمٌ بكيفيّة العمل ، وليس هو نفس العمل ، وكذلك تجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين إذا سُئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودّته أو شكوى ظلامة أو قصّد من قصوده أخطأ فيها الصواب ، وأكثر من اللحن ، ولم يُجدّ تأليف الكلام لذلك ، والعبارة المقصودة فيه على أساليب اللسان العربي .

١ - ابن خلدون : المقدّمة . مطبعة المكتبة المدرسية والكتاب اللبناني بيروت 1960 .

وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفئتن من المنظوم
والمنثور ، وهو لا يُحسن إعراب الفاعل من المفعول ، ولا المرفوع من المجرور ،
ولا شيئا من قوانين صناعة العربية " . (١)

واضح جدًا من هذا الكلام أن التعليم الأكاديمي الذي يهتم بالقوانين
ويهمل الملكة هو تعليم غير مفيد لتطوير " العربية " ونموها في عالم تداخلت فيه
اللغات والمصطلحات .

إن الوضع اللغوي العربي في الجزائر أحاطت به عوائق كثيرة أهمها ما
توارثناه من استعمار لغوي هيمن على الحياة الإدارية والاجتماعية والثقافية
وحتى السياسية ردحا من الزمن . وشد من عضده من تثقف من هذا الزاد
اللغوي الأجنبي ، وعده بعضهم مغنماً لغويا سعدت به الجزائر دون جارتها
(تونس والمغرب) ، و هو وهم خطير . ومن هنا دأبت الجزائر منذ اليوم الأول
من إعادة السيادة لها في التعريب فكّونت :

- * لجنة للتعريب .
- * و مجلساً لاستعمال العربية في الإدارة .
- * و مجلساً أعلى للغة العربية .
- * ومجمعاً لغويا .

كل هذه المؤسسات السياسية أثقل كاهلها التطرّف اللغوي الأجنبي
لفقدان التشجيع والتوظيف في الأماكن الحساسة العليا .

و إلى جانب ما تقوم به المدرسة الجزائرية والجامعة من جهد في تطوير
العربية في الكتاب المدرسي والمناهج والبرامج والإصلاح المتواصل ، ومع ذلك
فلا زالت الفرنسية يشتدّ ساعدها يوما بعد يوم .

¹ - المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها .

إن العلماء اللغويين العرب المؤسسين للمجامع اللغوية الحديثة تنبهوا إلى أن اللغة تنمو و تتطوّر بتطوّر الحياة و اتساعها ، وأنها ظاهرة اجتماعية تستجيب لحاجات الناس وأغراضهم ، حسب كل عصر و مصر ، فلا غرابة إن هم ترصدوا مسار العربية ، لأنّ الأوائل تخاطبوا فيما بينهم بعريبتهم السائدة في عصرهم. فتواضعوا عن مسميات تتناسب وأزمانهم وأحوالهم وأوضاعهم المادية والمعنوية فأثروا لغتهم. وعلى هذا الأساس لاحظ اللغويون المحدثون أن هناك أشياء جدّت في الحياة العصرية لا أسماء لها ، ففزعوا إلى الترجمة إن وجدوا مضارعا لهذه المخترعات الجديدة ، وإلاّ عربّوه وفق مقاييس عربية ، وصيغ صرفية تلحق بالصيغ التي تواضع عليها الأعراب البدو من قبل.

وهنا أريد أن آخذ نموذجاّ واحداً مما اجتهد فيه العلماء اللغويون العرب المحدثون وأصابوا فيه ، مع الاحتفاظ بالأساس المتواطئ عليه ، وهو اسم الآلة المعالج بها ، فقد عقد سيبويه بابا لها فقال : " هَذَا بَابُ مَا عَالَجَتْ بِهِ . أما الْمِقْصَصُ فالذي يُقْصَصُ ، وَالْمَقْصَصُ : المكان والمصدر. وكلّ شيء يُعَالَجُ بِهِ فهو مكسور الأول كانت فيه هاء التانيث أو لم تكن ، وذلك قولك : مَحْلَبٌ و مَنَجَلٌ و مَكْسَحَةٌ و مِسْلَةٌ ، وَالْمِصْفَى و الْمِخْرَزُ و الْمِخْيَطُ . وقد يجيء على (مِفْعَال) نحو : مِقْرَاضٌ و مِفْتَاحٌ و مِصْبَاحٌ . وقالوا : الْمِفْتَاحُ ، كما قالوا : الْمِخْرَزَةُ و الْمِسْرَجَةُ . كما قالوا : الْمِكْسَحَةُ " . (١)

إنّ هذه الأمثلة التي أوردها سيبويه ، وهي وزن :

1 - بِفَعَالٍ : كِمِفْتَاحٍ ، و مِشْشَارٍ ، و مِخْرَاطٍ .

١ - سيبويه : الكتاب . طبعة بولاق . ج 2 . ص 249

2 - و مِفْعَل : كَمِبَرْد ، و مِغْزَل ، و مِقْوَد .

3 - و مِفْعَلَةٌ : كَمِكْنَسَةٌ ، و مِطْرَقَةٌ ، و مِلْعَقَةٌ .

هذه الأمثلة ظلت هي نفسها يرددها العلماء في كتبهم بلفظهم¹ وشكلها، واشتراطوا في اشتقاقها أن تكون من أفعال ثلاثية . فلما تكونت السجامع اللغوية هالتهم هذه القيود في قوالب جامدة، فأضافوا أربع صيغ أخرى ، وتركوا الباب مفتوحا لما يجد في عالم الصناعة والاختراع .

وماك هذه الصيغ الأربع التي أقرها المجمع اللغوي المصري سنة

1963 .

أولاً - فِعَال . مثل : سِدَاد ، و زِنَاد ، و ثِقَاب .

ثانياً - فَعَالَةٌ . مثل : غَسَّالَةٌ ، و سَمَّاعَةٌ ، و ثَلَّاجَةٌ .

ثالثاً - فَاعُول . مثل : سَاطُور ، و نَاسُوخ (Fax) ، و حَاسُوب (Ordinateur) .

رابعاً - فَاعِلَةٌ . مثل : رَافِعَةٌ ، و عَارِضَةٌ ، و نَاقِلَةٌ . و نَاسِخَةٌ .

كما أزالوا قيد الثلاثية في الفعل المشتق منه .

وعذر هؤلاء العلماء الأقدمين كما يرى الشيخ محمد علي النجار قائلاً :
" إن الأقدمين الذين تناولوا بحث اسم الآلة لم يتبسّطوا في الكلام وأوجزوا ،
وعذرهم أن الآلات وأسباب الحياة لم تكن قد كثرت وتضاعفت ، كما
تضاعفت في عصرنا هذا " . (١)

وهكذا نرى أن المجامع اللغوية الحديثة جندت جهودها في خدمة
العربية ، وفسحت المجال للاشتقاق ، لا في اسم الآلة فحسب ، وإنما في كل

¹ - الأستاذ الشيخ محمد علي النجار ، بحث بعنوان : اسم الآلة . مجلة مجمع اللغة العربية
بالقاهرة . 1388 هـ / 1969 . ص 26

أبواب اللغة العربية. وما دمنّا قد تناولنا اسم الآلة لا بأس أن نعرض هذه الفقرة للأستاذ محمد علي النجار نفسه، وهي : " و ينبغي هنا أن يفرّق بين الآلة واسم الآلة في الاصطلاح، فالإبرة آلة، وليس باسم آلة، والمخيط بمعناها اسم آلة. والإشقيّ آلة. والمخرز بمعناه اسم آلة، والسيف آلة، والمخّذم اسم آلة. فالذي يعرض لاسم الآلة لا ينبغي له أن يذكر ما يدلّ على الأداة المحضّ التي لا تكون علاجية، ولا على الآلة التي لا يُشعر لفظها بالآلية كالإبرة والإشقيّ". (١)

وخلاصة القول إن الاشتقاق والتصريف يتداخلان فيما بينهما، وأنهما رافدان عظيمان لتطوير اللغة العربية وتنميتها، إلا أن التصريف أعمّ من الاشتقاق، لأنّ بناء مثل : قَرَدَد من الضَّرْب، يسمّى تصريفًا، ولا يسمّى اشتقاقًا ؛ لأنه خاصّ بما بنته العرب". (٢)

III - الأخذ :

إن الأخذ ركنٌ أساسيٌّ من أركان تنمية العربية وتوسيعها، وغالبًا ما أهمله العلماء اللغويون العرب، واكتفوا عنه ببياني الاشتقاق والنحت. والحقيقة أن " الأخذ" أعمّ منهما، صرح بذلك الإمام العالم أبو البقاء الكفوي في مؤلفه الضخم " الكليات " قائلا : " ودائرة الأخذ أوسع من دائرة الاشتقاق". (٣)

هذا وقد سبق علماء كثيرون الكفوي، تعرّضوا لأبواب كثيرة تتعلّق بتطوير العربية وتنميتها، من بين هؤلاء السيوطي في كتابه " الزهر" الذي

١- المرجع السابق نفسه والصفحة.

٢- السيوطي : الزهر . ج ١ ، ص 351

٣- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسني الكفوي : الكليات. مؤسسة الرسالة بيروت (د.ت) .

جَمَلَ المعالِم الكبرى لتطویر الغزبية ؛ مثل : الاشتقاق ، والذات ، والتعريب ، والقياس ، ولم يخص " الأخذ " بباب منفرد ، وإن كان لمسه لسياً قويا في بابي الاشتقاق والنحت . بيد أنني وجدت في القرآن الكريم " الأخذ " و " النحت " مُجْتَمِعَيْن ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِيَّاهُ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُدُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ . (١)

فالاتخاذ معناه تحويل السهول إلى قصور ، والجبال إلى بيوت من المادّة الجافّة إلى كييفيات أخرى ، فالسهول عادت قصورا مشيّدّة ، والجبال عادت بيوتا مشيّدّة . وهذه الكلم التي هي معان مجرّدة لا لون لها ولا رائحة ، بل هواء سائل مع الزفير ، المنبعث من الرئتين ، يؤخذ بعضها من بعض لتأدية أغراض متواضع عليها في مجتمع من المجتمعات البشرية .

ومما عزّز لدينا أن " الأخذ " غير الاشتقاق ما ذهب إليه سيبويه في تعريفه الفعل فقال : " و أما الفعل فأمثلة أُخِذْتُ من لفظ أحداث الأسماء ، وبُنييت لما مضى ، ولما يكون ولم يقع ، وما هو كائن ولم ينقطع " . (٢)

هكذا يوظف سيبويه مادّة (أ خ ذ) مفضّلا إياها على مادّة (ش ق ق) التي سادت عند من أتى بعده . وتناولها العلماء بالتأليف والجمع منذ أمد مديد ، ابتداء من أبي العباس بن محمد بن عامر الضبيّ (المتوفى 168 هـ) ، وكذا أبو علي محمد بن المستنير النحويّ المعروف بقطرّب (المتوفى سنة 206 هـ) ، والأصمعيّ (المتوفى سنة 215 هـ) ، والأخفش الأوسط (المتوفى سنة 231 هـ) ، وغيرهم . كل هؤلاء نجد أسماءهم في طبقات النحويين واللغويين سبقوا ابن دُرَيْد (المتوفى سنة 321 هـ) الذي جسّم لنا الاشتقاق في

١ - الأعراف ، الآية 74

٢ - سيبويه : الكتاب . ج 1 ، ص 12

معجمه الضخم، راداً فيه على " من يطعن على اللسان العربي ، وينسب أهله إلى التسمية بما لا أصل له في لغتهم ، و إلى ادعاء ما لم يقع عليه اصطلاح من أوليتهم ، وعدوا أسماء جهلوا اشتقاقها ، ولم ينقذ علمهم في الفحص عنها فعارضوا بالإنكار " . (١)

هذا ما جعل مصطلح " الأخذ " يختفي وينطوي ضمن الاشتقاق الذي تنوع إلى صغير وأصغر ، وكبير وأكبر ، مما جعل ابن جني يقول عن صنف من أصناف الاشتقاق (باب في الاشتقاق الأكبر) هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا ؛ غير أن أبا علي - رحمه الله - كان يستعين به ويخلد إليه ، مع إغواز الاشتقاق الأصغر . لكنه مع هذا لم يسمه ، وإنما كان يعتاده عند الضرورة ، ويستروح إليه ، ويتعلل به ، وإنما هذا التلقيب لنا نحن ، وستراه ، فتعلم أنه لقب مستحسن " . (٢)

ثم يسترسل في تقاليب الكلم ليدلل بها على أنها تشترك في المعنى العام ، وركز في بداية بحثه على مادة مشتقات (ك ل م) وتقاليبها ، مبيناً أنها تجتمع في معنى القوة والشدة . بيد أن أبا البقاء الكفوي يلحق هذه التقاليب نفسها بباب " الأخذ " ، وليست من الاشتقاق في شيء ، وذلك لأن " دائرة الأخذ أوسع من دائرة الاشتقاق ، وكل ما مادته ثلاثية فلها تقاليب ستة : أربعة منها مستعملة ، واثنان منها مهملة ، مثاله مادة الكلام ؛ فإن تقاليب هذه الحروف الثلاثة تدل على التأثير بشدة (كلم ، ملك ، لكم ، كمل) هذا معنى الأخذ وليس فيه اشتقاق " . (٣)

إذا وازناً بين ما ذهب إليه ابن جني وما رآه الكفوي نجد أن بين الأخذ والاشتقاق نسبا قويا إلا أننا نستطيع أن نقول : إن الأخذ أوسع مجالا ،

١ - ابن دريد : الجمهرة . مطبعة السنة المحمدية مصر 1378 هـ / 1958 م . ص 04

٢ - ابن جني : الخصائص . ج 2 ، ص 133

٣ - الكفوي : الكليات . (مرجع سابق) . ص 62

وأرحب مكانا ، لأنه لا يشترط فيه مادّة معيّنة مقارنة بين المعاني المتشابهة ، كالاشتقاق الذي هو " بعض الكلم من بعض ، واسمُ الجنّ مشتقّ من الاجتنان ، وأن الجيم والنون تدلانّ أبداً على السّتر . تقول العرب للدّرع : جُنّةٌ . وأجنّةُ الليل ، وهذا جنينٌ ؛ أي هو في بطن أمّه ، وأنّ الإنسان من الظّهور ، يقولون : آنستُ الشّيءَ أبصرته ، و على هذا سائر كلام العرب ، علِمَ ذلك مَنْ علِمَه ، وجهله مَنْ جهله " . (١)

و على هذا الأساس فإننا سنتناول دائرة " الأخذ " من جهات أربع هي :

- 1 - السّليقة العربية .
- 2 - الأخذ من الأصوات والصفات .
- 3 - الأخذ من الأعلام العربية والأعجميّة .
- 4 - أخذ الأفعال من العضو للدلالة على إصابته .

ولنأخذ الآن في تناولها واحدة واحدة ، وتقديم الواحدة على الأخرى لا يعني تفضيلها .

• أولاً - السّليقة العربيّة :

إنها جزء من السّليقة الإنسانيّة العامّة التي هي ناموس طبيعيّ في آدميين ، وملكة إنسانيّة لدى كلّ الناس جميعاً لا تختصّ بقوم دون قوم ، ولا بزمان دون زمان ، ولا تتطلّب ثقافة معيّنة ، لهذا عرفها أبو البقاء بهذا التعريف المختصر المفيد فقال : " والسّليقة قوّة في الإنسان بها يختار الفصيح من طرق التراكيب من غير تكلفٍ ، وتتبع قاعدة موضوعيّة لذلك . وذلك مثل اتفاق طباع العرب الأوّلين في رفع الفاعل ونصب المفعول به وجرّ المضاف إليه ،

¹ - السيوطي : المزهر . ج 1 . ص 345 - 346 .

وغير ذلك من الأحكام المستنبطة من تراكيبيهم¹ . ()

إن هذه السليقة الصافية ما زالت متمكنة في نفوس العرب البدو الذين لم يمارسوا أيّ تعليم، فهم يرفعون المرفوع، وينصبون المنصوب، ويجرون المجرور، فإذا سألتهم : " لماذا رفعتم أو نصبتم أو جررتم أجابوك " ، يقولهم : " لا نَدْرِي " . فإذا أردت معاكستهم بتحريف الكلام امتنعوا عن قبوله ولم يستسيغوه . أما الذين نالوا حظاً من التعليم فإنهم يعلّلون وقيسون ويصحّحون فيصوّبون ويخطّئون ، وعيبهم الوحيد الاكتفاء بالمألوف والمعروف في الكتب المدرسية . قيل لأعرابية : " أيّ الرجال زوّجك ؟ قالت بداهة : " إن دَخَلَ فَهَدَ وإن خَرَجَ أَسَدَ ، لا يُسألُ عَمَّا عَهَدَ " . (٢) فوظفت ثلاثة أفعال ، الأول (فَهَدَ) آخذة إياه من (الفَهْد) لكثرة نموه وسكونه ، وهو في كلامها كناية عن اللين واللفظ معها . والثاني (أَسَدَ) مأخوذ من (الأسد) ، وهو في كلامها كناية عن الشجاعة . والثالث (لا يُسألُ عَمَّا عَهَدَ) ، وهو في كلامها كناية عن الكرم ، لا يُسألُ عَمَّا ذَهَبَ من ماله .

هذه السليقة العفوية هي التي أثبتتها النحاة في مؤلفاتهم، فقالوا : " اسْتَحْجَرَ الطَّيْنُ " ، أي صَارَ حَجْراً حقيقة أو مجازاً ، أي صار كالحجر في الصلابة . و " أَنْ البُغَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ " ، أي يصير كالنسر في القوّة " . (٣)

هذه السيولة في الأداء تساعد على نموّ العربية وتطويرها ، فالأخذ من البُغَاثِ ، والحجر ، والنسر أفعالاً تساعد على المصطلحات الحديثة ، كالطائرة من (طار) ، والدبابة من (دب) .

¹ - أبو البقاء الكفوي : الكليات . ص 585

² - أبو العباس ثعلب : مجالس العلماء . دار المعارف بالقاهرة ، د.تا . ص 214

³ - رضي الدين الاسترنازي : شرح شافية ابن الحاجب . مطبعة حجازي بالقاهرة 1358 هـ /

1939 م . ج 1 ، ص 11

ويرى الأستاذ المرحوم عبد الله قنون أن العامة أصح تعريفاً من
المجامع اللغوية؛ إذ العامة توظف (الطيارة) بدل الطائرة المستعملة في الكتب
المدرسية، والمؤسسات العلمية والعملية، ويسقط هذا المصطلح على (السيارة)
بدل السائرة؛ لأنها مأخوذة من السير. وبلغت العامة ورد في القرآن :
﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ . (١) ومرد الأمر إلى السليقة العربية المتمكنة في الفئات
البداية التي لم تخالط لوثة الأعاجم والمتفهمين عنهم .

• ثانياً - الأخذ من الأصوات والصفات .

أ - الأصوات : الدليل على أن " الأخذ " أوسع دائرة من الاشتقاق والنحت
والقياس أن هناك ألفاظاً بعد أخذها ، وتنوسي معلّمها فلا أحد يعرفه . ذكر
هذا ابن جني في كتابه الخصائص ، فقال : [وقد يمكن أن تكون أسباب
التسمية تخفى علينا لبعدها في الزمان عنا ، ألا ترى إلى قول سيئويه :
" أو لعل الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر " يعني أن يكون الأول
الحاضر شاهد الحال ، فعرف السبب الذي له ومن أجله ما (٢) وقعت عليه
التسمية ، والآخر - لبعده عن الحال - لم يعرف السبب للتسمية ، ألا ترى إلى
قولهم للإنسان إذا رفع صوته قد رفع عقيرته ، فلو ذهبت تشتق هذا ، بأن
تجمع بين معنى الصوت و بين معنى (ع ق ر) لبعده عنك وتعسفت . وأصله
أن رجلاً قُطعت إحدى رجله فرفعها ووضعها على الأخرى ، ثم صرخ بأعلى
صوته ، فقال الناس : رَفَعَ عَقِيرَتَهُ [(٣)] .

وهذا تأكيد من ابن جني على أن " الأخذ " لا علاقة له بالاشتقاق في
كثير من الأحيان ، إذ الاشتقاق معلوم المصدر المادي ، وإنما تتباين الكلم
ببنياتها التي غالباً ما تكون قياسية . وقد بينّا ذلك في معلم الاشتقاق آنفاً .

¹ - سورة يوسف ، الآية 31

² - [ما] : هنا زائدة ويجوز أن تكون مصدرية ، مؤولة مع ما بعدها بمصدر .

³ - ابن جني : الخصائص . ج ١ ، ص 66

ب - الصّفات : كثيراً ما تأخذ التسمية من الصّفات ، قال عليه الصلاة والسلام : " الأولادُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَلَةٌ " ، فهذه الألفاظ مأخوذة من البخل والجبن ، وهي أوصاف دالة على الكثرة ، قال الاسترياذي : " اعلم أن الشيء إذا كثُر بالمكان ، وكان اسمه جامدا فالباب فيه (مَفْعَلَةٌ) ، بفتح العين ، كالمأسدة ، و المَسْبَعَة ، والمأذبة ؛ أي الموضع الكثير الأسد و السباع و الذئاب " . (١)

ومن هنا جاءت المكتبة والمدرسة ؛ أي الموضع الذي تكثر فيه الكتب والدراسة . ولا يدرك هذا المنحى إلا الحذاقُ للسان العربي الذين عزّ مطلبهم في عصرنا هذا .

وإليك هذه الرواية الذكيّة التي سجّلها العلماء اللغويون عن أبي عمرو بن العلاء " قال أبو بكر الرُّبَيْدِي في طبقات النحويين : سئل أبو عمرو بن العلاء عن اشتقاق الخيل فلم يعرف ، فمرّ أعرابيٌّ محرّمٌ ، فأراد السائلُ سؤالَ الأعرابي ، فقال له أبو عمرو : دعني فأني ألطفُ بسؤاله وأعرف ، فسأله ، فقال الأعرابي : استفاد الاسم من فعل السير ، فلم يعرف مَنْ حضر ما أراد الأعرابي ، فسألوا أبا عمرو عن ذلك ، فقال : ذهب إلى الخيلاء التي في الخيل والعُجْب ، ألا تراها تمشي العَرْضَنَة (٢) خِيَلًا وتكبراً " . (٣)

ويعني هذا أن الذي يتفوّه بالكلام لا يعنيه من أين أُخذت هذه اللفظة ، وإنما الذي يعنيه ما تدلّ عليه اللفظة . ومن هنا قال أبو عمرو بن العلاء : " دَعْنِي فَأِنِّي أَلْطَفُ بِسْأَالِهِ " . وذلك لكثرة مخالطته الأعراب ومعايشته إياهم ، ومعرفته بنواياهم ومقاصدهم ومذاهبهم .

١ - الاسترياذي : شرح الشافية . ج 1 ، ص 188

٢ - الفرس تعدو العَرْضَنَى . والعَرْضَنَة : أي معترضة مرة من وجه ، ومرة من آخر .

٣ - السيوطي : المزهر . ج 1 ، ص 363

• ثالثاً - الأخذ من الأسماء الأجنبية .

الأخذ من أسماء الأعلام والأجناس العربية والأجنبية مشاع بين جميع اللغات، وعليه فإننا سنكتفي ببعض النماذج الخاصة باللغة العربية، مثلاً :

1 - الديموقراطية : كلمة يونانية تعني العدالة الاجتماعية، أخذت صيغة العالمية بكيفيات مختلفة . وتكتب باللغة الفرنسية (Démocratie)، وبالكتابة (الفونيتيكية) النطقية (demokrasi) ، فالنطق يباين الرسم الخطي عندهم. أما السليقة العربية فقد غيرتها وألحقت بآخرها ياء مشددة بعدها تاء مربوطة، وأطلق على هذا النمط من البنية الصرفية (المصدر الصناعي) ، فسمح لمستخدمي العربية بالتوسّع في كلّ الميادين، فقالوا في المال : المالية، وفي الاشتراك : اشتراكية. وفي الصناعة : صناعية. وبنوا على هذا المصدر ما لا نهاية له من المصادر التي هي في الأصل أسماء .

كما أخذوا من الديموقراطية فعلاً فقالوا : مَقْرَطٌ ، وَتَمَقْرَطُ ، على وزن (فَعْلَل) المجرّد ، وَ (تَفَعَّلَ) من الرباعي المزيد بحرف واحد هو التاء ، مثل : دَحْرَجَ ، وَ تَدَحْرَجَ .

2 - باستور Pasteur : لفظ لاتيني بمعنى (راعي أغنام) ، وحدث أن ظهر عالم فرنسي كيماوي في القرن التاسع عشر (1822) اخترع أدوية كثيرة من أهمّها (البنسيلين) التي عولجت بها الأوبئة المختلفة والأمراض الفتّاكة ، وتقديراً لجهوده العلمية الطبية أُسِّت مؤسسات طبية تحمل اسمه، كما هو الحال في الجزائر، معهد باستور بحي بلكور، فاتخذت العربية منه فعلاً ، فقليل : بستر بسترّة على وزن فعلل فعلة ، فالحليب المبستر بمعنى المعقم . هذا وقد أقرّ المجمع اللغوي بالقاهرة سبعة أفعال هي :

- 1 - " بَسْتَر ، وهو مأخوذ من بستور، صاحب الطريقة الخاصة في التعقيم.
- 2 - بَلُور ، من البلور، وهو معرّب قديم .
- 3 - بَلْشَف ، من البلشفية.
- 4 - تَلْفَن ، من التلفون .
- 5 - فَبْرَك ، من الفابريكة، والمراد بالفعل : صنع الشيء بالآلة.
- 6 - جَبَس ، من الجبس ، من موادّ البناء ، وهو معرّب قديم.
- 7 - كَهْرَب ، من الكهرباء . وقد أقرّ المجمع تعريب الاسم الأعجمي . (١)

١ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة : كتاب في أصول اللغة ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية 1388 هـ / 1969 ، ص 252

رغم وجهة أعمال المجامع اللغوية العربية إلا أنها وقعت في أخطاء كثيرة تتنافى والبحث اللغوي العلمي المتواطي عليه قديما عند جلّه العلماء العرب اللغويين الذين كانوا يتحرون الشائع المتداول على ألسنة الناطقين باللسان العربي ، فلا يقررون ولا يحكمون إنما يعتمدون المنهج الوصفي الدقيق الموثق بالرواية الصحيحة ، وهو منهج يرتضيه البحث اللغوي الحديث عن قناعة علمية ، إذ اللغة ليست كالأشياء التي يتحكم فيها الناس ، وما أحسن قول الزعيم الروسي استالين الذي قال : " لقد استطعنا أن نؤمّ كل شيء إلا اللغة فإننا لم نستطع أن نكمّم الأفواه ونروّعها على ما نحب ونبغي " ، إذ الأفواه تدفع والأذان تسمع ، والألفاظ لا تؤخذ بالقياس ولا يستدلّ عليها بالعقل والإحساس ، إنما هي نغم نقيّد وكلم تسمع فتقلّد . هذا المنهج العلمي تجاوزه بعض العلماء المحدثين لاعتمادهم قوانين صارمة معيارية لا تتناسب وطبيعة الألسن البشرية التي يعتريها التبدل والتغير في البنية والأداء الصوتي والمفاهيم الدلالية المتطورة .

وقد أدرك هذا علماؤنا الأوائل ، فهذا ابن سلام الجمحي يقول : "ولكنّ العربية التي عنى محمد بن علي ، اللسان الذي نزل به القرآن ، وما تكلمت به العرب على عهد النبي (ﷺ) ، وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا " . (١)

وهذا اعتراف واضح بأن العربية وغيرها من اللغات تتطور من عهد إلى آخر فإذا كان محمد بن سلام الجمحي الذي عاش في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث (الهجري) أدرك هذه الفجوة بين العربية التي نزل بها القرآن والعربية في عهده ، فكيف بمجامعنا اللغوية التي يفصل بينها وبين العربية

الأولى قرون أن لا يقرّوا هذه المصطلحات العربيّة الوافدة من غير العربيّة، كالماركسية والكلاسيكية والديموقراطية والرومانطيقية ... والتي لها نظائر في العربيّة، بل في لغة القرآن، فلفظة (الفِرْدَوْس) وردت في القرآن، وهي لفظة أجنبية، فاشتقّ العرب منها فعلا فقالوا : ["فِرْدَس" الكرّم : وسعه وعرشه]، فاستساغها المتكلّمون وظفّوها في مخاطبتهم اليوميّة، فقالوا عن الأندلس " الفِرْدَوْس المفقود " .

لكنّ مجامعنا اللغوية الحديثة لم تقرّ مصطلحات كثيرة عربيّة باحثون لغويّون في اللسان العربي، فاكتفى أصحاب المجامع ببعضها ورفضوا بعضها الآخر. وهذه العبارة دالة على ما نقول : " ومن حيث الأفعال التي أوردتها الأستاذ الباحث في غضون بحثه، مشتقة أو مأخوذة من كلمات أعجميّة، ترى اللجنة ألاّ يقرّ منها إلا ما صلح صوغه العربي، وساغ في الذوق، وشاع استعماله في الكتابة، والتأليف بوجه عام " . (١) ولم يستسيغوا العرب المأخوذ من غير لغة العرب فحسب، بل استهجنوا أفعالا عربيّة وردت متعديّة والأصل في البنية اللزوم مثل : " استهدف الشيء جعله هدفا له " . واستهدف في المعاجم فعل لازم معناه : انتصب وارتفع ودنا " . (٢)

إن علماءنا الأوائل أطلقوا على هذا النمط " المولد "، ولم يتحرّجوا فيه ولا ناقشوه؛ لأن القاعدة العامّة التي أوردتها ابن جنّي في كتابه (الخصائص)، تقول : " إن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدّى بحرف، والآخر بآخر، فإن العرب توقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانا بأن هذا الفعل بمعنى ذلك الآخر " . (٣) وهذا دليل على طواعيّة العربيّة وسعتها وقابليتها للتطور والنمو، وأنها صالحة لكل زمان ومكان لقدرتها على سبك

١ - محمد النجار : مجمع اللغة العربيّة . (مرجع سابق) ، ص 251

٢ - محمد النجار : (المرجع السابق) ، ص 41

٣ - ابن جنّي : الخصائص . ج 2 . ص 209

الكلم الدخيلة وتذويبها في بنيات صرفية عربية محضة مما يضيف عليها الصيغة العربية التي تبعد عنها شائبة العجمة أو الغرابة أو النشوز . ففعل (ناور) مثلا لا نحس بغرابته عندما نسمع قول القائل : إن الجيش يقوم بمناورات استعراضية لمدة أسبوع في المنطقة الصحراوية مثلا . ولو أخذنا نشق لهذا الفعل سبلا وفق قوانين الاشتقاق المتعارف عليها في كتب النحو العربي لما وجدنا له أصلا يعود إليه . لكن فقهاء اللسانيات الحديثة يعرفون أنها مأخوذة من فعل أجنبي هو (Manoeuvrer) بمعنى : أدار وحرك وشغل الشيء . وتطور معنى هذا الفعل فقالوا : ناور مناورة . وغالبا ما يدل هذا المصدر على التحرش والتحدي . ولا غضاضة في هذه الدلالة عند العامة و الخاصة . وكثير من هذه الصيغ شاعت و ذاعت ، مثل : " بَلَقْن السَّيَاسَةَ الْجَزَائِرِيَّةَ " ، مأخوذ هذا من منطقة البلقان ، للدلالة على الفوضى .

ولا يمكن حصر هذه الصيغ ، لأنها لا تخضع لقوانين مضبوطة . فقد اخذ العرب من السبت ، وهو أحد الأيام السبعة " سَبَتَ " . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ . (١) ففعل (يَسْبِتُونَ) مأخوذ من السبت ، ومعناه يدخلون في السبت ، كما يقال : (أَشْهَرْنَا) دَخَلْنَا فِي الشَّهْرِ ، و (أَجْمَعْنَا) دَخَلْنَا فِي الْجُمُعَةِ ؟ (٢)

• رابعا - أخذ الأفعال من العضو للدلالة على إصابته .

تنبيه علماء العربية القدامى إلى أخذ بعض الأفعال من الأعضاء المصابة بالداء أو الجرح ، حتى لا يقال " مصاب في يده . أو في رأسه " . وقد حصر لنا ابن سيده في معجمه الشهير (المختص) مجموعة من الأفعال المأخوذة من

¹ - سورة الأعراف ، الآية 164

² - الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن . ج 9 ، ص 40

أسماء الأعضاء، نأتي على بعض منها لإفادتها في علم الجراحات والطب ،
 لكننا نحاول أن لا نتبع طريقته لما فيها من مشقة، لأنه يتعرض للراوي
 كالأصمعي، وأبي عبيدة ، وابن السكيت، وغيرهم . فمما جاء عنه :

- 1 - رَأْسُهُ ، أَرَأْسُهُ : أَصَبْتُ رَأْسَهُ.
- 2 - أَفَحْتُهُ ، أَفْحَاهُ : ضَرَبْتُ يَافُوحَهُ.
- 3 - دَمَعْتُهُ ، أَدَمَعُهُ : ضَرَبْتُ دِمَاعَهُ.
- 4 - جَبَهْتُهُ : صَكَّكْتُ جَبْهَتَهُ.
- 5 - أَدَنْتُهُ : أَصَبْتُ أُذُنَهُ. وفي المثل : " لِكُلِّ حَابِيهِ جُورَةٌ ثُمَّ يُؤْذَنُ " .
- 6 - صَمَخَهُ ، صَمَخًا : أَصَابَ صِمَاخَهُ.
- 7 - صَدَعْتُهُ ، أَصَدَعُهُ صَدْعًا : ضَرَبْتُ صَدْعَهُ.
- 8 - أَنْفَقْتُهُ : ضَرَبْتُ أَنْفَهُ.
- 9 - خَرَطَمَهُ : ضَرَبَ خُرْطُومَهُ.
- 10 - نَبَيْتُهُ : أَصَبْتُ نَابَهُ.
- 11 - ذَقَنْتُهُ ، أَذَقْنُهُ ، ذَقْنَا : ضَرَبْتُ ذَقْنَهُ .
- 12 - حَلَقْتُهُ ، حَلَقًا : ضَرَبْتُ حَلَقَهُ . وفي الحديث : " عَقَرًا حَلَقًا " .
- 13 - عَضَدْتُهُ ، أَعَضَدُهُ : أَصَبْتُ عَضْدَهُ ، وكذلك إذا أَعْنَتُهُ وَكُنْتُ لَهُ عَضْدًا.
- 14 - تَرَفَّقْتُهُ : أَصَبْتُ تَرَفُّقَتَهُ.
- 15 - صَدَرْتُهُ : أَصَبْتُ صَدْرَهُ.
- 16 - نَخَرْتُهُ : أَصَبْتُ مَنَخَرَهُ .
- 17 - نَغَرْتُهُ : أَصَبْتُ نَغْرَتَهُ.
- 18 - حَرَكْتُ الْبَعِيرَ ، أَحْرَكُهُ ، حَرَكًا : أَصَبْتُ حَارَكَهُ .

- 19 - كَتَفْتُ الرَّجُلَ ، أَكْتَفُهُ ، كَتَفًا : ضَرَبْتُ كَتِفَهُ .
- 20 - قَرَصْتُهُ ، أَقْرَصُهُ : أَصَبْتُ قَرِصَتَهُ .
- 21 - ظَهَرْتُهِ : أَصَبْتُ ظَهْرَهُ .
- 22 - مَنَنْتُهُ : ضَرَبْتُ مَنَنَّهُ .
- 23 - فَقَرْتُهِ : أَصَبْتُ فَقَارَهُ .
- 24 - وَتَنْتُهُ : أَصَبْتُ وَتِينَهُ . وَمِنْهُ الْوَتِينُ . ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْوَتِينِ ﴾ . الْحَاقَّةُ / 47
- 25 - يَدَيْتُهُ : أَصَبْتُ يَدَهُ .
- 26 - جَنَحْتُهُ : أَصَبْتُ جَنَاحَهُ . وَهِيَ الْيَدُ .
- 27 - كَرَسَعْتُ : أَصَبْتُ كَرَسُوعَهُ . عَنْ ابْنِ السَّكَيْتِ : ضَرَبَهُ فَكَوَعَهُ : صَيَّرَهُ مَعُوجَ الْأَكْوَاعِ .
- 28 - بَطَنْتُهُ ، أَبْطَنُهُ ، وَأَبْطَنُهُ ، وَقَلَبْتُهُ ، أَقْلَبُهُ : أَصَبْتُ قَلْبَهُ . وَفَأَدْتُهُ : أَفَادَهُ : أَصَبْتُ فُؤَادَهُ . وَطَحَلْتُهُ ، أَطَحَلُهُ : أَصَبْتُ طَحَالَهُ .
- 29 - رَأَيْتُهُ : أَصَبْتُ رَأْيَتَهُ . وَرَجُلٌ مَرِيٌّ
- 30 - كَبَدْتُهُ ، أَكْبُدُهُ : أَصَبْتُ كَبِدَهُ . وَكَلَيْتُهُ : أَصَبْتُ كَلَيْتَهُ . وَمَثَنْتُهُ : أَصَبْتُ مَثَانَتَهُ .
- قالوا : والمصدر كله (فَعَلَ) ، إِلَّا الطَّحَلَ وحده فإنه بفتح الطاء .
(وعن ابن السكيت : هو الطَّحَلَ و الطَّحَلَ . وعن أبي عبيدة : ومن اشتكى من هذا شيئاً قيل فيه : فَعِلَ . وكذلك كل ما كان في الجسد) .
- 31 - سَتَهْتُهُ : ضَرَبْتُ أَسْتَهُ
- 32 - رَكِبْتُهُ ، أَرَكُبُهُ : إِذَا ضَرَبْتُ رَكِبَتَهُ ، أَوْ ضَرَبْتَهُ ، أَوْ ضَرَبْتَهُ بِرَكِبَتِكَ .

33 - سَقَتَهُ : أَصَبَتْ سَاقَهُ .

34 - عَرَقَتْهُ : ضَرَبَتْ عِرْقَوَيْهِ .

35 - نَسَيْتَهُ : ضَرَبَتْ نَسَاهُ (عِرْقَ النِّسَاءِ) .

36 - عَقَبَتْهُ : ضَرَبَتْ عِقْبَهُ .

37 - كَعَبَتْهُ : ضَرَبَتْ كَعْبَهُ . وعن (ابن السكيت : ظَبْيٌ مَرَجُولٌ : مَصَابُ الرَّجُلِ .¹)

اللافت للنظر أن كثيرا من هذه الألفاظ المأخوذ من العضو المصاب ما زالت مستعملة عند العامة فيقولون مثلا : فلان مصدور، ومروي، ومركبن، على صيغة اسم المفعول . كما يقولون : بطنته ، وكرسعته، ودمغته، وخرطومته على أنفه ، وغيرها . بمعنى أصبت بطنه وكرسوعه و دماغه وخرطومَه ... لكن الكتب المدرسية لا تعير لهذه المفردات المأخوذة من الأعضاء بالاً، وربما تسخر منها ، وتعتبرها لغوا .

¹ - ابن سيده : المخصص. دار الآفاق الجديدة بيروت، د.تأ. ج 6 . ص 104 ، 105 ، 106

IV - الترجمة :

تعتبر الترجمة منبعاً ثرياً من أكثر الينابيع التي اعتمدها العرب قديماً وحديثاً في تنمية لغتهم وإثرائها وإغنائها بما ليس عند العرب من مفردات لمخترعات سادت في الحضارات السابقة عن الحضارة العربية الإسلامية ، كالحضارة الهندية واليونانية والمصرية ، فقد ثبت أن العرب اتصلوا بغيرهم من الأمم قبل الإسلام ، ولا بدع إن هم تأثروا بهذه الحضارات وأثروا فيها ، في كل مناحي الحياة الاجتماعية ، ومنها وسيلة التخاطب التي هي اللغة . وتم ذلك عن ثلاثة سبل هي :

1 - جُنْدِيسَابُور : وهي مدينة في خوزستان ، أسسها سابور الأول ، والتي تنسب . يحكي القفطي : أن المدينة بُنيت على شكل القسطنطينية ، وأن أول من علم الطب بها أطباء من الروم " ولما أقاموا بها بدؤوا يعلمون أحداثاً من أهلها ، ولم يزل أمرهم يقوى في العلم ، ويزيدون فيه ، ويرتبون قوانين العلاج على مقتضى أمزجتهم حتى برزوا في الفضائل " . (١)

فلا ريب أن المصطلحات العلمية لم تكن بالعربية ، إذ " كانت تُدرّس في مدينة جُنْدِيسَابُور الثقافة الهندية ، بجانب الثقافة اليونانية ، وكان يشترك بعض الهنود في التدريس باللغة الفهلوية " . (٢) إلا أننا نجد في بعض الروايات " أن الحارث بن كعدة الثقفي طبيب العرب تعلم قبيل الإسلام في مدرسة جنديسابور ، وعالج بفارس ، وطب بعض أجلاء الفرس ، فأعطاه مالا وجارية ، سماها الحارث سمية ، وهي أم زياد بن أبيه ، ومات الحارث في أول الإسلام ، ولم يصح إسلامه " . (٣)

¹ - أحمد أمين : ظهر الإسلام . مكتبة النهضة المصرية . د. ت. ج 1 ، ص 255

² - المرجع السابق نفسه . ص 256

³ - المرجع السابق نفسه . ص 256

وذلك لأن العربية لا تعاف الترجمة ولا تخشاهما لشجاعتهما، إنما تصبغها بصبغة عربية في أصواتها و أبنيتها ودلالاتها ، فقد أخذوا من الهند فعلا فقالوا : " هَند الصَّانِعُ السَّيْفَ " إذا شَحَذَهُ ، فالسَّيْفُ مُهَنَّدٌ . ونجد في شعر الشعراء قبل الإسلام لفظ " هَند " ، كاسم علم شائع في جنسه، دالٌّ على التآنيث.

2 - حَرَآن : و أما حَرَآن فمدينة في الجزيرة شمالي العراق ، وهي مدينة عربية قديمة، عاصرت اليونان والرومان والنصرانية والإسلام، فاختلطت بها اللغات لاختلاف الأجناس والعادات والعبادات، فكانت اللغة القبطية واليونانية والفارسية والعربية حديث القوم، وعرفت ازدهارا في الثقافة اليونانية أولا، ثم في الثقافة الإسلامية ثانيا لاتصالها بالخلفاء العباسيين الشغوفين بدراسة الثقافات كاليونانية وغيرها من الثقافات، وكان الأثر الأكبر في الرياضيات والهندسة والهيئة والتنجيم .

3 - الإسْكَندَريَّة : و أما الإسْكَندَريَّة فعاصمة مصر اليونانية أو مصر الإفريقية ، وبها وُلد مذهب فلسفي يسمَّى مذهب الإسْكَندَريين أو الأفلاطونية الحديثة ، ومؤسسه مصريّ هو (أفلوطين 205 - 269)، وهذا المذهب مدين بأفكاره لفلاسفة اليونان على اختلاف مشاربهم.

ولما جاء الإسلام، وبخاصة في العصر العباسي الأول، فقد ترجم العلماء كلُّ علوم اليونان إلى العربية بتشجيع من الخلفاء، فترجموا تآليف أرسطو ، وشروح الإسْكَندَريين عليها، وبعضَ ملُفات أفلاطون، وأهمُّ كتب جالينوس في الطبّ ، وعلى الجملة فقد ترجموا كلُّ ما وصل إليه العقل اليوناني في العلم والفلسفة.

وظلَّ الأدب اليونانيّ في منعة لم يقربه المترجمون ؛ لأن ترجمة العواطف ليست من السهولة بمكان ، يضاف إلى هذا ما تمتاز به الآداب

اليونانية من تقديس للآلهة وتعددها. وهو أمر تستهجنه الآداب العربية الإسلامية، المتزنة الخاضعة لمبدأ التوحيد .

هذا وقد نهجت الترجمة العربية منهجين :

* المنهج الأول فطريٌ طبيعيٌ لا يخضع للقواعد والضوابط الشكلية التي هجّنها ابن خلدون ، فقال : " لا تلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق " . (١) ، وإنما يتبع القوانين الاجتماعية الجارية على ألسنة المتخاطبين عرباً أو عجماً .

والعرب بحكم موقعهم الجغرافي في آسيا واتصالهم بغيرهم عن طريق الأسفار والتجارة والمجاورة تأثروا بغيرهم في الخطاب ، فترجموا ما ترجموا وفق السليقة العربية ، فكان : الكافور والزنجبيل والبيغاء من الهنود . والكوز والجرّة والإبريق والخوان والقصة والكعك والسّميد من الفارسية . والصراط والقسطاس والخندريس والقُمقم والدّرهم والدينار من اليونانية الرومية .

كما أخذوا من السريانية والنبطية والعبرية والآرامية ما أخذوا ، وصبّوا ذلك في نسيجهم اللغوي العربي متبعين طريقتين :

1 - إما التعريب ، وهو الكثير ، قديماً وحديثاً.

2 - وإما الترجمة بما يضارعه في اللسان العربي.

* المنهج الثاني، علميٌ، يخضع للقوانين العلمية، وهو المعتمد عندما تذكر الترجمة العربية ، وقد ظهرت آثاره في الفنون العلمية والأدبية ، وتخلص من العفوية الساذجة التي يوظفها العامة في محاوراتهم ، كما كانت في المنهج الأول ، وقد أعاد على العربية الخير الكثير من المفردات والمصطلحات العلمية والفلسفية والدينية والصوفية ، ولمع مترجمون أكفاء ساعدوا علماء الإسلام على

^١ - ابن خلدون : المقدمة ، ص 1072

الجدل والبرهنة والسفسطة وطريقة الحجاج ، وغيرها مما كان عند العرب في القديم يعتمد على السليقة والبداهة . ويرى الأستاذ أحمد أمين (رحمه الله) في كتابه " ضحى الإسلام " أن الترجمة مرّت بأدوار ثلاثة هي :

- **الدور الأول :** من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ؛ أي من سنة 136 إلى سنة 193 هـ ، وفي هذه الدور ترجم كتاب " كليلّة ودمنة " من الفارسية ، و " السندُ هندُ " من الهندية . وترجمت بعض كتب أرسطو طاليس في المنطق وغيره . ومن أشهر المترجمين في هذا الدور ابن المقفّع في الأدب ، وجرجيس بن جبريل ، ويوحنا بن ماسويه ، وكلاهما كان طبيباً نصرانياً . وفي هذا الدور اتّصل المعتزلة بالكتب التي تُرجمت .

- **الدور الثاني :** من عهد المأمون ، من سنة 198 إلى سنة 300 هـ . وأشهر المترجمين في هذا الدور يوحنا أو يحيى البطريق (مولى المأمون) ، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب ، وترجم كثيراً من كتب أرسطو ، وقسّطا من لوقا البعلبكي ، عاش سنة 220 . وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي ، عاش سنة 220 ، وحنين بن إسحاق ، توفي نحو 260 . وابنه إسحاق بن حنين ، توفي سنة 298 . وحبّيش الأعمش ابن أخت حنين ، وغيرهم .

- **الدور الثالث :** من أتى بعد هؤلاء ، من أشهر المترجمين فيه متى بن يونس ، كان في بغداد سنة 320 ، وسانان بن ثابت بن قرّة ، مات سنة 360 . ويحيى بن عديّ سنة 364 . وابن زرعة سنة 398 ، وأهم ما ترجموا الكتب المنطقية والطبيعية لأرسطو ، وتفسيرها ⁽¹⁾ .

¹ - أحمد أمين : ضحى الإسلام . مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1961 . ج 1 .

• إشكالية الترجمة في العصر الحديث :

ولادة الترجمة الحديثة كانت عسيرة ومائعة، تختلف كل الاختلاف عن النشأة الأولى التي عرفناها . وذلك لأن العرب لم يكونوا حاضرين زمن توالد هذه المصطلحات العلمية والفنية والهندسية والصناعية ، فلما فاقوا وجدوا ركاما من الألفاظ و الأسماء والمصطلحات نتيجة الاختراعات والابتكارات ، ففزعوا إلى الترجمة والتعريب بدون زادٍ متين ، وقديما اشترط الجاحظ في المترجمان شروطاً يعزّز مطلبها، ويعسر تحقيقها ، فقال : " ولا بدّ للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزنه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة و المنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية . ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين ، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما، لأنّ كلّ واحدة من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذ منها، وتعرض عليها.

وكيف يكون تمكّن اللسان منهما مجتمعتين فيه، كتّمكّنه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوة واحدة ، فإن تكلم بلغه واحدة استفرغت تلك القوة عليها، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ، وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء به أقل، كان أشدّ على المترجم ، وأجدر أن يخطئ فيه ، ولن تجد البتّة مترجماً يفني بواحد من هؤلاء العلماء " . (١)

هذه المواصفات المستحيلة التوافر في الفرد الواحد، أعطتنا ترجمة مشوّهة متباينة التناغم بين شعب وآخر في البيئة الواحدة .

يضافُ إلى هذه المواصفات الفراغُ المهولُ في الواقع اللغوي بالثقافات

¹ - الجاحظ : كتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار إحياء التراث

العربي بيروت ، د.ت.ا. ص 76 - 77

الأجنبية، مما جعل العلماء يُفكِّرون في حذف اللغات الأجنبية التي أنتجت هذا الزخم الجديد، فأنشأوا من أجل ذلك المجامع اللغوية، فكان أول مجمع لغوي علمي "نشأ بدمشق سنة 1918م، ثم تلاه مجمع اللغة العربية بالقاهرة" سنة 1934، ثم تلاحت المجامع تباعاً في العراق والأردن والمغرب والجزائر بعناوين مختلفة.

يلاحظ على هذه المجامع أنها جاءت متأخرة جداً، وإلى جانب هذا التأخير فقدان التنسيق المحكم بين الواقع اللغوي، وما اصطلح عليه. لكنها جعلت من أولياتها تعريب المصطلحات للمخترعات الجديدة، وأسماء الآلات الحديثة، فعربت ما عربت منها غير أنها ظلت حبيسة النشريات والدوريات والقرارات؛ لأنها ابتعدت عن الواقع اللغوي المتداول بين أفراد المجتمعات العربية. على عكس النشأة الأولى للمصطلح العربي الذي انتزع من صميم العربية المتداولة في الخطابات اليومية السائدة بين أفراد المجتمع العربي، كما أن العربية حين التقت مع الثقافات الأخرى قديماً كانت في أوج عزتها ومنعتها، قادرة على الأخذ والعطاء والتأثير والتأثر، فغالبت ألسنا كثيرة كاليونانية والإغريقية والهندية والفارسية فغلبتها وأثرت فيها. أما والحالة أن العربية أصابها ما أصاب الناطقين بها من استعمار بغيض عدو اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم.

وعلى هذا الأساس نشأ طوفان من المصطلحات والأسماء مشوهة الخلقة ومتعددة الجنسيات، ونصب أشباه المثقفين أنفسهم مترجمين. كل واحد يدعي صواب ترجمته، مخطئاً الآخرين، ونكتفي بمصطلح (Linguistique) الذي تباينت فيه الترجمة العربية، ووصلت إلى أكثر من ثلاثة وعشرين مصطلحاً (23)، كما أثبت ذلك الدكتور عبد السلام المسدي.

وهذا لم يحدث أبداً في القديم، فالمصطلح ينشأ في المشرق، أو في

V - المصطلح العربي وَ تطوُّره :

- ديباجة :

سبحان مَنْ يَهَبُ القوةَ والمناعةَ لمن يشاء ، فقد وهَبَ العِزَّةَ لمادة " ك ل م " مهما تَقَلَّبَت حروفها وتشققت تصاريفها واختلفت هيئاتها . بهذا التعريف بدأ ابن جَنِّي حَدَّ الكلام بقوله : " وأما (ك ل م) فهذه أيضا حالها ، وذلك أنها حيث تَقَلَّبَت فمعناها القوة والشدة " (١) فالألفاظ تَلَفُظُ هواء فارغا ، منها ما تذهب مع الرياح و الهواء السائل في الفضاء ، ومنها ما يكتب لها البقاء والثبات على مر الدهور والسنين ، فتَنْقُشُ على الجدران ، أو تَزْبِرُ في الألواح المزبورة والصحف المسطورة فيتناقلها الخلف عن السلف ، ويتوارثها لاحق عن سابق ، وما المصطلح إلا من هذا القبيل الأخير الذي كُتِبَتْ له السلطة والعزة ، وأصبح علما بالْغَلَبَةِ ، بعد أن كان مجرد اسم مفعول لفعل " اصطلح " على وزن افعل المزيْد بالألف والتاء المبدلة طاء ، لوقوعها بعد حرف الصاد الذي هو أحد حروف الإطباق ، فتقول اصطلاح يصطَلِحُ اصطلاحًا .

فالفاعلُ هو مُصْطَلِحٌ واللفظ مُصْطَلَحٌ عليه ، هذا هو تحديد النحوي لفعل " صلح " . أما المعجمي فيحدد المصدر من " اصطلاح " بهذا التعريف ، فيقول : " فالاصطلاح عبارة عن اتفاق قومٍ على تسمية الشيء باسم ما ، ينقل عن موضعه الأول " . وأيضا :

- " الاصطلاح إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما " ، وقيل :
- " الاصطلاح اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى " . وقيل :

١ - ابن جني الخصائص . دار الكتب بمصر 1952 . ج 1 ، ص 13

- " الاصطلاح : إخراج الشيء من معنى لغوي، إلى معنى آخر لبيان المراد ". وقيل :

- " الاصطلاح : " لَفْظٌ مُعَيَّنٌ بَيْنَ قَوْمٍ مُعَيَّنِينَ " . (١)

هذه التعريفات تتضمن أن مردّ الاصطلاح هو نقل اللفظ من وضعه الأصلي ، إلى وضع ثانٍ عُرِفَ ، يتمّ التوافق عليه بين طائفة معينة، في علم مُعين ، فيكتسب الوضع الثاني دلالة إجماع مُطلق ، لا دلالة مجاز مقيد، فيطرّد استعمالاً وشيوعاً .

• طبيعة النشأة :

يُرْسَل اللفظ إرسالاً لا يقصد لفظه من ورائه شيئاً، سوى ما يتناسب والمقام . فلم يكن عليّ بن أبي طالب يرمي من وراء قوله لأبي الأسود الدؤلي - على بعض الروايات - : " انْحُ هَذَا النَّحْوُ " أن يُصَبِّحَ هذا المصدر علماً، له خطورته وأبعاده ، وتنشأ حوله المدارس المختلفة، ويتخاصم الأقسام حوله، ويتحاكم إليه الفقيه، والأصولي، والفيلسوف، وتؤلف الكتب الضخمة، وتتوسع بالشروح والتعليق ، وتتكون مكتبة عربية تحت هذا المصدر " النَّحْوُ " لها شأنها . وما قيل عن النحو يقال عن الفقه، والفلسفة، والصلاة، والزكاة، والحج ، وغير ذلك من المصطلحات .

بهذه العفوية تأسس المصطلح التراثي، واشتهر و ذاع، وتنوع بتنوع العلوم النظرية والعملية، ونما بنمو الحضارات والاختراعات، فكلما جدّ جديد إلا و اصطلاح على لقب له، كمصطلح خاص به، لا يتناول غيره . هذا ما حصل في المصطلح العربي في التراث الإسلامي فلم يكن للعرب أصولٌ يراجعونها ولا كتب يقرأونها ، فلما جاء الإسلام ازدهرت الحضارة ، وتنوعت

١ - الجرجاني أبو الحسن علي بن محمد بن علي : التعريفات. الدار التونسية للنشر. ص 16

المعارف ، وامتنج العرب بالحضارات السابقة ، فاحتاجوا إلى مصطلحات ، تعصم معارفهم من التداخل ، فكان مصدر المصطلحات القرآن الذي هز الأفكار العربية ، وجعلها تتفاعل مع القيم الجديدة بمصطلحات جديدة لم تكن معهودة من قبل لديهم ، فالقرآن مأخوذ من مادة [ق ر أ] ^(١) ، يقال : " أقرأت المرأة ، فهي مقرءة إذا حاضت ... وذلك لاجتماع الدّم في الرحم " ^(٢) . والقرء من الأضداد ، يصلح للحيض والطمهر ، ومن معانيه أيضا الاجتماع ، ومنه : قرأت القرآن لاجتماع حروفه ، و ما قرأت الناقة سلا قط ، أي لم يجتمع رحمها على ولد قط . قال عمرو بن كلثوم :

نِرَاعِي عَيْطَلٍ أَدْمَاءَ بَكْرٍ هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينًا " ^(٣)

هذا هو المعنى اللغوي فأين هو من دلالة مصطلح " القرآن " الذي أخذ أبعادا اصطلاحية ابتعدت كل البعد عن الدلالة اللغوية ، وفاض القوم فيه وعرفوه بأنه " الكتاب المنزل على الرسول (ﷺ) المكتوب في المصاحف ، المنقول نقلا متواترا بلا شبهة " ^(٤) .

وهكذا ينشأ المصطلح عفويا ثم يكتسب صفة التمكن والثبات ، وتعفى المادة اللغوية إعفاء كلياً ، وتنمحي صورتها من أذهان المتعاملين مع اللفظ المصطلح عليه ، فقول أهل اللغة : القرآن مصدر كالكفران والرجحان لا أحد يتخيله ؛ وإنما أصبح هذا المصطلح علما للقرآن تمييزا له عن الكتب المنزلة على الرسل كال்தوراة والإنجيل ، والزبور.

^١ - يخالف الشافعي هذا الرأي . " قال الشافعي : وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين ،

وكان يقول (القران) اسم وليس بمهموز ، ولم يؤخذ من (قرأت) ، ولو أخذ من (قرأت) لكان كل ما قرئ قرآنا ، ولكنه اسم للقران ؛ مثل التوراة والإنجيل ، يهيمز (قرأت) ، ولا يهيمز (القران) . الشافعي : الرسالة . ص 14 ، هامش رقم 4 .

^٢ - الطبرسي : مجمع البيان ، ج 2 ، ص 226 ، المجلد الأول .

^٣ - نفس المرجع والصفحة .

^٤ - الشريف الجرجاني : التعريفات . ص 92

وقد يلحق فقهاء اللغة تقارباً خفياً بين المعنى الوضعي، الذي يعني الجمع و ما يحويه القرآن من جمع للديانات السابقة له، " قال بعض العلماء تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمره كتبه بل لجمعه ثمرة جميع العلوم " . (١)

هكذا نشأت المصطلحات العربية، وفق ما طرأ على الحياة العربية، من حاجات لابتكار ألفاظ تتناسب وما جدّ في المجتمع العربي الإسلامي من علوم، فراح العلماء يتواطأون على تسميات جديدة، ويتواضعون عليها كل في حقله الخاص، و أهم الطوائف الأولى تجسّمت في :

1 - القراء، وهم الذين انصبت أعمالهم على القرآن، فاهتموا بداءة باللغات؛ أي اللهجات فكانت القراءة الشاذة، والمطرّدة، والنادرة، ثم في الأصوات، فكان المجهور، والمهموس، والشديد، والرخو، إلى غير ذلك .

2 - الفقهاء، فكان الحلال، والحرام، والمباح، والمكروه، والمندوب، والوضوء والغسل، والقرض، والواجب، والمستحب، إلى غير ذلك .

3 - النحاة، فكان الفعل، والفاعل، والمفعول، والمرفوع، والمنصوب، والمجرور، والمعرّب، والمبني، والظرف، والمظروف، مما جعل الأعرابي يقول : " يتكلمون بلغتنا بما ليس في لغتنا " .

4 - رجال الحديث، فكان السند، والمتن، والمرسل، والصحيح، والضعيف، والموضوع، ولعلهم كانوا أسبق إلى استعمال لفظ " مصطلح "، فكان مصطلح " علم مصطلح الحديث " هو الأول .

5 - المتكلمون، فكان الحشر، والميعاد، والجوهر، والعرض، والحدوث، والعدم، والحساب، والصراط، إلى غير ذلك .

١ - الراغب الإصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن . ص 414

وفي هذه المرحلة التي نشأ فيها المصطلح بطريقة عفوية نلاحظ أمرين : أحدهما : أن هذه المصطلحات ليست لها حدود بين الأقوام . فالأطراد والشذوذ يستعملهما النحوي و الفقيه والمحدث ، وما قيل عن الأطراد والشذوذ يصدق على القياس والعلة و العلول ، والسبب والمسبب . إلا أن طريقة التناول تختلف بين جماعة وأخرى ، فالقياس النحوي ليس هو القياس الفقهي ، فالاتفاق في المصطلح ، والتباين في التناول ، والغرض المقصود ، والمنهج المتبع . وثانيهما : انعكاس المصطلح على الأعمال الإنشائية لدى كل فريق ، مما نشأ عنه أدب اللطائف والنوادر التي تميز هوية الكاتب ، وتشف عن مذهبه الذي يتعاطاه باستعمال المصطلحات الخاصة بفنّه ، أو بمذهبه ، ولذلك نجد ضبطاً للمصطلح المتبع لدى كل فريق .

• المصطلحات الحديثة :

تفاقت المصطلحات في النصف الثاني من القرن العشرين ، و أصبحت الشغل الشاغل لفقهاء اللسانيات ، وتنوعت بتنوع المستحدثات التي لم تكن معهودة من قبل ، فقامون توزيع الأعمال واختلاف الورشات الصناعية جعلت المصطلحات تتكاثر و تتباين فيما بينها مما جعل المصطلح يختلط مع الاسم الخاص بالآلة . إذ المصطلح ، كما عرفناه ، هو انتقال معنى لفظ خاص إلى معنى عام ، تتفق عليه جماعة من العلماء ذوي الاختصاص في موضوع ما . فأخصّ مميزاتة : الشمول والعموم ، وعدم وجود قاعدة ضابطة لقياسه . فمصطلح " الجبر Algebre " الدال على علم الرياضيات والحساب هو في أصل وضعه اسم علم (لجابر بن حيان) مخترع هذا العلم . فهو اسم دال على مسمى بعينه ، بيد أن هذه الدلالة الخاصة انتقلت من الخصوص إلى العموم . فمصطلح " الجبر Algebre " يوظفه العالم الرياضي العربي وغير العربي ، ولا يخطر بالبال أنه اسم علم في العربية منقول من وصف فعل (جَبَرَ ، يَجْبِرُ ،

فهو جابرٌ) اسم فاعل، ثم تنوسي الوضع الأول تماما، مثله مثل : سالم
و سالة، ونائل و نائلة ، وغير ذلك مما هو معلوم في الكتب النحوية.

وهكذا في المصطلحات الحديثة التي شملت حقولا كثيرة ، ونكتفي
بأحدث مصطلح الأنترنت (Internet) ، وهو عبارة عن شبكة متعددة
التخصصات، متصل بعضها ببعض، وتنقسم إلى مسفيات لا مصطلحات :
1 - شبكة محلية.

2 - شبكة واسعة المدى .

ويدخل تحت هذا المصطلح (Internet) أشياء لا حصر لها من أسماء
الآلات. هذا أهم مصطلح مستحدث ، ونحن نلاحظ أن لا خيار لنا في هذا
المصطلح ، قبلناه ، ولم نسأل عن دلالة الأصلية ولا تركيبته، مثلما فعل غيرنا
في مصطلح " الجبر" .

وعلى هذا الأساس تراكمت المصطلحات الحديثة التي منها ما هو
مترجم، كمصطلحات : علوم الإدارة ، والاقتصاد، والاجتماع، والصحة،
والسكن، والتجارة، والإعلام، والتربية، والفلاحة، والتنجيم، والبحرية ...
ومنها ما هو معرّب، كالانترولوجية، والسيكولوجية، والفيزيائية،
والموفولوجية، وغير ذلك.

VI - الْمُعَرَّب :

العربية هي هذا اللسان الذي نزل به القرآن ، والتي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ الأول ، والعربية لا نعرف بدايتها الأولى بالضبط .
يَبْدُ أننا نعرف هذا التراث الشعري والنثري الذي أنتجه العرب قبل الإسلام بزمان قليل ، ولا ريب أنه ضاع منه ما ضاع بدليل مقولة أبي عمرو بن العلاء :
" ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعر كثير " . ()

لكن بعد نزول القرآن تداول الأقوام مفرداته بالبحث والتنقيب والتأصيل والتفريع ، فضبطوا البنى والأوزان ، وعرفوا الأصيل من الهجين ، والمشتق من الدخيل ، فكان أن نشأ الخلاف بينهم : هل في القرآن من الألفاظ ما ليس بعربي ؟ .. فكانت ثلاثة مذاهب تتنازع الاهتداء :

1 - مذهب أبي عبيدة الذي يأبى أن يكون في القرآن لفظ أعجمي ، ومن قال بذلك فقد أكبر القول على الله .

2 - ومذهب ابن عباس ومجاهد ، وغيرهما من الصحابة الذي يؤكد وجود ألفاظ من غير لغة العرب .

3 - وأخيراً مذهب أبي عبيد الذي يوفق بين الرأيين .

هذا وقد تعرض لهذا الأمر كل العلماء العرب الذين تناولوا تفسير القرآن ، ونكتفي بما جاء عند الجواليقي ، حيث يقول : " فأما ما ورد منه في القرآن ، فقد اختلف فيه أهل العلم ، فقال بعضهم :

- كتاب الله تعالى ليس فيه شيء من غير العربية .

¹ - ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء - ج 1 ، ص 25

أخبرني غير واحد عن الحسن بن أحمد عن دعلج عن علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد قال : سمعتُ أبا عبيدة يقول من زعم أن في القرآن لساناً سوى العربية فقد أعظم على الله القول ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ . (١)

قال أبو عبيد : وروي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهم ، في أحرف كثيرة : أنه من غير لسان العرب ، مثل " السجّيل " ، و " المشكاة " و " اليم " ، و " الطور " و " أباريق " و " استبرق " وغير ذلك .

فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة . ولكنهم ذهبوا إلى مذهب ، وذهب هذا إلى غيره . وكلاهما مصيب إن شاء الله تعالى .

وذلك : أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل ، فقال أولئك على الأصل ، ثم لفظت به العربُ بالسنتها فعربتَه ، فصار عربياً بتعريبها إياه ، فهي عربية في هذه الحال ، أعجمية الأصل . فهذا القول يصدق الفريقين جميعاً . (٢)

هذه مجمل الآراء فيما دار من جدل حول المعرب أو الدخيل في القرآن . أما في غيره ، فلا حاجة في وقوعه ، وقد عرفه العلماء بأنه اللفظ الذي " استعملته " العرب من الألفاظ الموضوعة لعان في غير لغتها . " قال الجوهري في الصحاح : تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها ، تقول : عربته العربُ أو أعربته أيضاً " . (٣)

إن هذا الاستعمال ولّدته الحاجة للتعبير عن أشياء لا أسماء لها في

١ - سورة الزخرف ، الآية ٣

٢ - الجواليقي : المعرب . تحقيق أحمد محمود شاكر ١٣٠٩ . أعيد طبعه بالأوفست في

طهران ١٩٦٦ . ص ٤ - ٥

٣ - السيوطي : المزهري ج ١ ، ص ٢٦٨ .

لغتهم ، غالبا ما تكون طارئة على البيئة العربية ، فيضطر العرب لـ هذه الفراغات ، و وضع أسماء لها . أو تنتج من التخالط والاحتكاك بين الشعوب والأمم ، وتمتاز بمجالات خاصة كالألفاظ الدالة على التدين والدين تستمد من اللغات التي نزلت بها الكتب السماوية ، كالسريانية ، والآرامية ، والعبرية ، والألفاظ الدالة على العقود والتجارة من الفرس ، والألفاظ الدالة على الحضارة من الروم . والألفاظ الدالة على الفلسفة والمنطق من اليونان ... و هلم جرا في كل الألفاظ الدخيلة على اللسان العربي .

أولا - الأصوات : أهم شيء لفت أنظار العلماء العرب هي الأصوات اللغوية ، لما لهذه الأصوات من تباين في اللغات ، فقد توفرت العربية على حروف لا مثيل لها في اللغات الأخرى ، وقد يقع العكس بأن تتوفر اللغات الأخرى على أصوات لا مضارع لها في العربية ، فتوقف العلماء ، يلاحظون ويغيرون الحروف ، ويبدلونها ، ويدعمونها ، ويحذفونها حتى تنسجم ونظامهم الصوتي .

الأمر الثاني : هي البنى والصيغ ، فألحقوا ما ألحقوا بأبنيتهم ، وتركوا ما تركوا عملا بترك العلامة "علامة" .

والأمر الثالث : المعنى أو الدلالة الأصلية ، والتي دلت عليها بعد التواضع الطارئ ، وإذا تمت هذه الخطوات الثلاث يصبح اللفظ الدخيل له ما للفظ العربي " لَفْظٌ حَامِلٌ ، وَمَعْنَى بِهِ قَائِمٌ ، وَرِبَاطٌ لَهُمَا نَاطِمٌ " . (١)

والأمر الذي ينبغي أن نتحفظ منه أن ما أثبتناه جاء متأخرا عن زمن حدوث المعرب ، إذ العربي كان يتفوه وفق طبيعته وسليقته دون التفات للأصوات ، والبنى ، والدلالات ، والذي استنتجناه يتوافق و ما جاء في الكتاب

١ - الخطابي : بيان إعجاز القرآن . ص 24

لسببويه ، والذي يتوجب علينا أن ننقل الباب المتعلق بالأعجمية بأكمله ،
 لأعور أهمها : أن اللفظ الأعجمي كان من اهتمامات العلماء منذ الوهلة الأولى
 للدراسات اللغوية . وها هو ذا سببويه يقول :
 " هذا باب ما أعرب من الأعجمية " .

اعلم أنهم مما يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم
 البتة ، فربما ألحقوه ببناء كلامهم ، وربما لم يلحقوه . فأما ما ألحقوه ببناء
 كلامهم (فَدَرَهَم) ألحقوه ببناء (هَجْرَع) ، و (بَهْرَج) ألحقوه بسلْهَب .
 و (دينار) ألحقوه بديمَاس . و (ديباج) ألحقوه كذلك . وقالوا (إسحاق)
 فألحقوه بإعصار ، و (يعقوب) فألحقوه بَيْرُبُوع . و (جورب) فألحقوه بفوعل .
 وقالوا : (أجور) فألحقوه بعاقول . وقالوا : (شُبَّارِق) فألحقوه بعذافر .
 و (رُستاق) فألحقوه بقرطاس . لما أرادوا أن يعربوه ألحقوه ببناء كلامهم كما
 يلحقون الحروف بالحروف العربية .

وربما غيَّروا حاله عن حاله في الأعجمية مع إلحاقهم بالعربية غير
 الحروف العربية ، فأبدلوا مكان الحرف الذي هو للعرب عربيا غيره . وغيروا
 الحركة وأبدلوا مكان الزيادة ، ولا يبلغون به بناء كلامهم ، لأنه أعجمي
 الأصل ، فلا تبلغ قوته عندهم إلى أن يبلغ بناءهم . وإنما دعاهم إلى ذلك أن
 الأعجمية يُغَيِّرُها دخولُها العربية بإبدال حروفها ، فحملهم هذا التغيير على أن
 أبدلوا وغيَّروا الحركة كما يغيرون في الإضافة إذا قالوا : هنيَّ نحو زبانيَّ
 وثقفي . وربما حذفوا كما يحذفون في الإضافة ، ويزيدون كما يزيدون فيما
 يبلغون به البناء ، وما لا يبلغون به بناءهم ، وذلك نحو : آجَرُ ، وإبرئسم ،
 وإسماعيل ، وسراويل ، وفيروز ، والقهرمان .

وقد فعلوا ذا بما ألحق ببنائهم وما لم يلحق ، من التغيير والإبدال ،
 والزيادة والحذف ، لما يلزمه من التغيير . وربما تركوا الاسم على حاله إذا

كانت حروفه من حروفهم ، كان على بنائهم أو لم يكن ، نحو : خُرَّاسَان ،
وخرَّم ، والكُرْكُم . وربما غَيَّرُوا الحَرْفَ الذي ليس من حروفهم ولم يغيروه عن
بنائه في الفارسية نحو : فِرْدُ ، وَبَقْمُ ، وَآجَرُ ، وَجُرْبُزُ " . (١)

يرسم لنا سيبويه مشروعا لتعريب الكلام الأعجمي ، وكيفية التعامل
معه بالزيادة والنقصان ، والتبديل والتغيير ، وكأنه شيء عادي ومتعارف عليه .
وسار على هذا النهج العلماء العرب من بعده ، فألف الخفاجي كتابه : "شفاء
الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل" ، وألف الجواليقي " المعرب من
الكلام الأعجمي " .. فاعتمده العلماء العرب كمرجعية لكلام المعرب ، ولذا
يحسن بنا أن نثبت النص التالي منه : " هذا الكتاب نذكر فيه ما تكلمت به
العرب من الكلام الأعجمي ، ونطق به القرآن المجيد ، وورد في أخبار الرسول
(ﷺ) والصحابة والتابعين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وذكرته العرب في
أشعارها وأخبارها ، ليعرف الدخيل من الصريح .

ففي معرفة ذلك فائدة جليلة ، وهي أن يحترس المشتق فلا يجعل
شيئا من لغة العرب لشيء من لغة العجم " . (٢) نستفيد من هذا النص
أن المعرب ثابت في القرآن والحديث وكلام الصحابة والتابعين ، وفي أشعار
العرب وأخبارها ، ومعرفته ضرورية لمعرفة الدخيل من الأصل ، ونضيف إلى
هذا أن صحة نسبته إلى العرب دليل على اتصال العرب بغيرهم من الشعوب
والأمم ، التي عاصرتهم ، فتلاقحت اللغات ، ولكن الدخيل يبقى مبتور الأصل .

قال أبو بكر بن السراج في رسالته في الاشتقاق : " مما يحذر منه كل
الحذر أن يشتق من لغة العرب لشيء من لغة العجم ، فيكون بمنزلة من ادعى
أن الطير ولد الحوت " . (٣)

1 - سيبويه : الكتاب . تحقيق عبد السلام محمد هارون . ج 4 . ص 303 - 304
2 - الجواليقي : المعرب . ص 3
3 - الجواليقي : المعرب . ص 4

وللمعرب فوائد لغوية لا تحصى، إذ تعتبره العربية بمثابة النافذة المفتوحة على الألسن المختلفة، وذلك لأن " العرب العاربة قد اختلطت بسائر الألسنة في أسفارهم ، فعلقت من لغاتهم ألفاظا حتى جرت مجرى الفصح ، واستعملوها في أشعارهم ومحاوراتهم ، ولهذا نزل بها القرآن" . (١)

وللعربية عبقريتها الخاصة التي تذلل بها الكلم ، وتطوعها للصياغة العربية ، والمعرب لا يختص بزمان دون زمان ، ولا بمكان دون مكان آخر ، فالتعامل معه يظل في ديناميكية متواصلة عبر الأجيال والأجناس ، ناهيك على أنه من الأهمية بمكان، بدليل أن المجامع العربية أولته عناية خاصة ، وأفردت له أعدادا خاصة من مجلاتها في القاهرة ودمشق وبغداد في بداية أعمالها الأولى .

وأنجزت قرارات كثيرة في شأن التعريب والاشتقاق . ولسينا بصدد نقدها أو توجيهها وملاحظة الخطأ والصواب ، وإنما لنبرهن على حاجة الناس إلى المعرب ، ودلالته المتجددة والمتطورة .

ولنا في الحضارة العربية الدليل الأمثل على أنه أدى خدمة للمجتمع العربي في إثراء القاموس العربي في مختلف المجالات العلمية، والاجتماعية، والسياسية. وكانت العامة أسرع وأدق في استعمال المعرب لما له من رواج في معاملاتهم اليومية ، فسرعان ما يعربون الألفاظ ، وليس ببعيد عنا ما نشاهده في مجتمعنا العامي الجزائري، لما يمتازون به من بقايا السليقة العربية ، والفطرة الإلهية الكامنة في نفوسهم، فيقولون : شَنْبَر و شَنْابِر، فيُقَرِّدون ويجمعون دون أن يعلموا أن لهذه الأمثلة نظائر في البنى العربية، مثل : عَنَبِر و عَنَابِر ، و عَسَكِر و عَسَاكِر . وقالوا : فِلْم و أفلام ، كما قالوا : قَسَم و أقسام ، و رَطْلُ و أرطال ، وهو نفس المسلك الذي سلكه العرب قديما، ومن

١ - طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة ، ومصباح السيادة . ج 2 . ص 375

ثم يتأصلُ العرب حتى يُنسى مصدره الأصلي بتاتا . فمن منا يشك في عُجْمَةِ التلميذ و الأستاذ، والفيلسوف، والقنطار، والدِّينار، والدَّرْهَم، والصَّلَاة، والصراط، وغير ذلك من الألفاظ التي تمَّ تعريبها من لغات أخرى، وإدماجها في العربية منذ زمن بعيد، وتعامل معها الناس في مخاطباتهم، فنَمَت بها العربية، وتمكَّنت من صياغتها صياغة عربية.

أما العلماء العرب في مجامعهم فقد التزموا مذاهب التعريب، كما تركها لهم الأوائل، فكانت خطواتهم بطيئة لأنها تستنتج من خلف المكاتب ويطون الكتب، وأبهاء الصالونات الفخمة. ومنذ القديم ضاق الشعراء بتشديدات المستعربين، حيث يقول أحد هم :

” مَاذَا لَقِينَا مِنَ الْمُسْتَعَرَّبِينَ وَمِنْ قِيَاسِ نَحْوِهِمْ هَذَا الَّذِي ابْتَدَعُوا
إِنْ قُلْتُ قَافِيَةً بَكْرًا يَكُونُ بِهَا بَيِّنٌ خِلَافَ الَّذِي قَاسُوهُ أَوْذَرَعُوا
قَالُوا لَحْنَتْ وَهَذَا لَيْسَ مُنْتَصِبًا وَذَلِكَ خَفَضٌ وَهَذَا لَيْسَ يَرْتَفِعُ
وَحَرَضُوا بَيْنَ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ حُمُقٍ وَبَيْنَ زَيْدٍ فَطَالَ الضَّرْبُ وَالْوَجَعُ“ (١)

والألفاظ التي يكتب لها البقاء والدوام هي التي يكثر دورانها على ألسنة الناس، لأنهم لا ينتظرون قرارات المجامع اللغوية وتوصياتهم، إلا ما كان من المصطلحات العلمية المعربة التي لاشأن للعامة بها، فهي من مكتسباتهم، فمنذ عهد الجوالقي الذي رسم تصميمًا محكمًا لمعرفة الدخيل من الأصل في بابين :

* أحدهما يتناول فيه طريقة العرب في تعريب الألفاظ، وهو لا يخرج عما رأيناه عند سيبويه، إلا أنه أشدَّ منه تهذيبًا وتنظيمًا.

* وثاني الأبواب في معرفة المعرب من خلال تأليف الحروف، وقد طرقه سيبويه من قبل، غير أن منهجية التأليف، والإحصاء، والتبويب، واضحة عند الجواليقي، فقد ضبط الألفاظ المعربة إلى عصره، ورتبها وفق حروف المعجم العربي، وقدم للكتاب بمقدمة لا تقل أهمية عن المقدمات المعاصرة، إذن فلسيبويه فضل السبق، ولمن جاء بعده فضل التنظيم والتبويب.

• طرق معرفة الدخيل من الأصل :

يُجمع العلماء العرب على مقاييس و ضوابط بها يميزون اللفظ الدخيل من الأصل، ويعود أغلبها إلى الأصوات اللغوية، من ذلك أن الجيم والقف ما اجتماعا في كلمة واحدة، إلا وهذه الكلمة معربة " كالجوق"، و" المنجنيق"، و" أجوق".

ومنها أن الصاد والجيم ما اجتماعا في كلمة إلا و كانت معربة، مثل : " الصَوْلجان" و" الصَّنَاجَة".

ومنها أنه لا يوجد في أصول بنية العربية اسم فيه نون بعدها راء إلا ودل على أنه معرب، مثل : " نَرَجِس"، و" نَرْد"، و" النَرْمَق" فارسي معرب.

ومنها أن كل كلمة فيها زاي قبلها دال إلا وهي دخيلة، من ذلك " الهَنْدَاز"، و" المُنْهَذَر".

والملاحظة العامة التي تنتظم هذه الأمثلة هي تقارب مخارج هذه الحروف بعضها من بعض، ولذا عقب الجواليقي على هذه الضوابط بقوله : " فأما أمثلة العرب فأحسنها ما بُني من الحروف المتباعدة المخارج. وأخف الحروف حروف الذلاقة وهي ستة : ثلاثة من طرف اللسان، وهي : الراء، والنون، واللام، وثلاثة من الشفتين، وهي : الفاء، والباء، والميم. ولهذا

لا يخلو الرباعي والخماسي منها ، إلا ما كان من " عَسَجْد " فإن السين أشبهت النون للصغير الذي فيها ، والغنة التي في النون .

فإذا جاء مثال خماسي أو رباعي بغير حرف ، أو حرفين من حروف الذلاقة فاعلم أنه ليس من كلامهم " . ()

هذه الضوابط استعرضها كلها سيبيويه ، والغريب في أمر علماء العربية الذين جاؤوا بعده أنهم حذفوا حذفه ، ولم يحاولوا حتى تفسير هذه المفردات التي يظهر أنها كانت معلومة لديهم مثلما هو معلوم عندنا نحن في الجزائر " الشَّبْر " ، و " الشَّنَابِر " ، و " القَلَم " ، و " الأفلام " ، و " التَلْفُون " ، و " التلفونات " .

والذي يخرج به الدارس للمعرب عند العرب هو مدى استيعابهم للغتهم ، وإحصائهم المستفيض لحروفها ، وبنياتها ، ودلالاتها ، وأصولها ، وفروعها ، و وضعوا عيارا يعيرون به الخالص من الزائف . ونضيف إلى هذه الضوابط بعد مراجعتنا المؤلفات التي تناولت المعرب أن المقاييس الأساسية لاختبار الدخيل من الأصل هي :

أولا : المادة الأصلية واشتقاقاتها الصغرى والكبرى ، وهي القانون الذي اعتمده المعجميون ، فلو أخذنا مادة (ص ل ي) ، أو (ص ل و) لما وجدنا فيها ما يمت بصلة إلى الشَّعِيرَة التي يتعبد بها المسلمون خمس مرات في اليوم واللييلة ، وإنما نجد فيها ما يدل على الحرار ...

﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴾ .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيُصَلِّي سَعِيرًا ﴾ .

ثاني هذه المقاييس - برأينا - : المعنى الحقيقي والاصطلاحي ، إذ لا يجب أن يغيب عن أذهاننا دور المجاز و دلالاته الاصطلاحية .

ثالث هذه المقاييس : الرُّسْم الخطي للكلمة ، فالصلاة ترسم في المصاحف العتيقة " الصَّلوات " ، فهذا الرسم لا يتوافق ونطقها ، إذن فليس بأصيل .

ورابع هذه المقاييس هو مقارنتها بالفاظ أخرى ، كاللاهوت ، والطاغوت ، وهاروت ، وماروت . هذه اللاحقة (وت) التي تتوفر في غير العربية . نقول هذا لأننا نجد أن العرب قد لا يوجد فيه مقياس واحد من المقاييس التي ذكرها المستعربون ، وهي أجنبية مثل " صراط " بصورتها الصوتية ، وخفة وزنها ، وعذوبة أجراسها ، وشيوع دلالاتها لورودها في القرآن الكريم ، بل في السورة التي سميت بأمر القرآن ، والسبع المثاني ، والفاتحة ، وهي أكثر السور القرآنية تردداً على ألسنة المسلمين ، يتلوها المصلون آناً الليل وأطراف النهار ، وفي كل الأحوال المختلفة .

أرأيت لو أخذنا نستعرض مادة (ص ر ط) من كل وجوه تقلباتها واشتقاقاتها لما وجدنا علاقة بين معناها المتواضع عليه ، وهو الطريق ، وما قرأنا ولا سمعنا أن أحداً من الناس قال : سَلَكْتُ صِرَاطَ وَهْرَانَ ، أو صِرَاطَ الجِزَائِرِ ، أو غيرهما من الطرق . ومن هنا نستشف أن هذه المفردة دخيلة . ونجد لها نظيراً في اللاتينية (Strata) ؛ بمعنى الطريق المعبد .

فالأعراب الأقحاح أحسن تعريفاً من المعجميين ، فلم يستسيغوا هذه البنية الأعجمية ، ففعلوا فيها ما ذكرنا آنفاً دون شعور أو تكلف ، وإنما بطريقة الحسن اللغوي العربي والسليقة العربية .

1 - فقلّبوا التاء طاءً ، أولاً لتجانس النطق العربي .

2 - واختاروا لها بنية صرفية على وزن (فَعَال) ثانياً ، فقالوا : صِرَاط .

3 - وخصّوا لها دلالة تواضعوا عليها ثالثاً، وهي الاستقامة، وهو معنى ذهني مجرد، بعيد عن المعنى المادي المدرك بإحدى الحواس.

ويبدو أن هذه المفردة قد دخلت العربية منذ عهد بعيد ، وأمد مديد، فاكتمبت صبغة الأصيل المألوف ، والمستعمل المعروف، لما اتسمت به من تناغم في البنية والحروف ، فلم يقع حولها نشاز ، لا في المعنى ولا في المبنى، مثلما وقع لعمر بن الخطّاب في بعض الروايات، أنه لما قرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ ، فقال : " الفاكهة عرفناها ، فما الأب ؟ " ، ثم تدارك الأمر فقال : " مالك يا عمر وهذا التكلف ؟ " .

لهذا يجب التحقق والتحفظ في أمر الدخيل حتى لا نقع في الغلط . فما اللطف ما نقل الجواليقي عن أبي بكر بن السراج أنه قال في رسالته في (الاشتقاق) : " مما يحذر منه كل الحذر أن يشتق من لغة العرب لشيء من لغة العجم فيكون بمنزلة من ادعى أن الطير ولد الحوت " .

فاللغات في عصرنا هذا تداخل بعضها في بعض ، فهناك مفردات أعجمية أخذت صفة عربية في التداول ، مثل كلمة (أوكي . Ok) (١) تعني (نعم) أو (موافق)، فتمكنت هذه الدلالة بكثرة الشيوخ والاستعمال اليومي ، وبخاصة في المؤسسات الإدارية. وكذا لفظة (باردو) عند المصريين، وهي باللغة الفرنسية (Pardon) تعني (عفواً) .

ومن هذا القبيل ما هو عربي الأصل دخل اللغة الفرنسية مثلاً لفظة (Comat) ، وتعني في العربية (الغمة) ، لكن شيوعها في علم الطب مكنها من الدلالة على (الإغماء الكلي) وفقدان الوعي ، فدخلت القاموس الفرنسي .

ومما هو جدير بالذكر أن المعاجم الفرنسية تحيل على أن أصلها عربي، وهذا إنصاف من العلماء الأجانب . خذ مثلاً معجم (Petit Robert) تجد ما قلناه صحيحاً.

¹ - وهي اختصار للكلمة الأمريكية : OLL KORRECT

VII - المُولَد وَ النَحْت :

لم يكن العرب قبل الإسلام يعرفون من اللغة سوى ما يتخاطبون به في معاملاتهم ، أو ما يتساجلون به في أشعارهم ، ليعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم ، أو ما يخطبون به في محافلهم في الفرح أو الترح .

ففي الترح إن حلَّ حَظْبٌ ، أو نشبت بينهم حربٌ ، أو نواحٍ عند مهلك قريب ، أو إقامة قدّاس عند صنم معبود .

وفي الفرح إن حلَّ عيد ، أو تزوّج وليد ، أو هلّ مولودٌ في يوم سعيد ، وهم مطمئنون كل الاطمئنان على سلامة لغتهم من الزيغ والانزياح ، فكانوا حراساً على نقاوتها وصفائها ، يعرفون مواقع كلامهم بحكم السليقة والسجية .

وما أن جاء الإسلام حتى تغيّرت المفاهيم ، واشتد الاحتكام إلى اللغة فقالوا : لفظ مولد و مصنوع ، ودخيل و أصيل ، ومشتق و مرتجل . وبدأت هذه الثنائية ، تتشكل لتأخذ صفة المصطلحات العلمية عند علماء اللسان العربي الذين هبوا لجمع اللغة من أفواه الأعراب الذين لم يمازجوا أجناساً أخرى غير أهلهم وذويهم ، ومن يتمذهب بمذهبهم ، ويتكلم بلغتهم ، فاضطر العلماء العرب في عصر الاحتجاج أن يحدّدوا القبائل التي يمكن الأخذ عنها ، والتي لا يؤخذ عنها ، فخطوا خريطة مكانية وأخرى زمانية احتمالية .

فالمكانية هي بالتقريب ما نصت عليها كتب الطبقات ، حيث يقول التّهانوي : " اعلم أن هذه العلوم لم تؤخذ عن العرب قاطبة ، بل عن الفصحاء البلغاء منهم ، وهم الذين لم يخالطوا غيرهم : كهذيل و كنانة ، وبعض تميم ، وقيس عيلان ، ومن يضاهيهم من عرب الحجاز ، وأوساط نجد . فاما الذين صاقبوا العجم في الأطراف لم تعتبر لغاتهم ، وأحوالها في أصول هذه العلوم ، وهؤلاء كحمير وهمدان وخولان والأزد ، لمقاربتهم الخبيثة ، والزنج ، وطبي

وغسان لمخالطتهم الروم بالشام، أو عبد القيس لمجاورتهم أهل الجزيرة وفارس، ثم أتى ذوو العقول السليمة والأذهان المستقيمة، ورتبوا أصولها وهذبوا فصولها، حتى تقررت على غاية لا يمكن المزيد عليها " . (١)

هذه الرقعة المكانية أما الزمانية، فقد صعب عليهم الأمر لأنه ليس للزمان نقطة ابتداء وانتهاء، ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ . (٢)

ورغم هذا فقد وضعوا علامات تقريبية، تخص أهل المدر وأهل الوبر، وحددوا المولد بهذا التحديد " هو ما أحدثه المولدون الذين لا يحتج بألفاظهم ، والفرق بينه وبين المصنوع أن المصنوع يورده صاحبه على أنه عربي فصيح ، وهذا بخلافه " . (٣)

فلنقف ملياً عند هذا التحديد الذي يستفاد منه أن هذا المولد ما هو إلا تطور لدلالة الألفاظ ، ونعم التسمية . و من الثابت في العقول والقائم في النفوس أن كل جديد، إلا ويتلقاه المحافظون بالسنة حداد، وأن الناس سينقسمون حوله، فأهل اللغة يبحثون عن الشاهد الذي يعزز مذهبهم، ويتناسب وخاصية العربية الأولى التي نزل بها القرآن، وزكأها الشعر العربي السابق له ، وهذا الموقف يرتضيه المنهج العلمي عن قناعة مادام القوم في مرحلة الجمع والتصنيف ، والتحقيق والتأليف .

أما المجددون فقد اتخذوا هذا الشعار " علينا أن نقول ، وعليكم أن

- 1 - التهاني : كشف اصطلاحات الفنون . حققه الدكتور لطفي عبد البديع . وترجم النصوص من الفارسية الدكتور عبد النعم محمد حسين، وراجعته الأستاذ أمين الخولي 1382 هـ / 1963 . ج 1 . ص 19
- 2 - سورة الزمر ، الآية 6
- 3 - السيوطي : الزهر . ج 1 ، ص 304

تَوَلَّوْا " . فكان من اللغويين الحائر المتردد ، والمنكر المتشدد ، والمعتدل المقتصد .
فأما أبو عمرو بن العلاء (المتوفى 154 هـ) فحار وتردد ، وقال : " لقد
كثر هذا المولد حتى كدت أن أمر صبياننا برواته والتأدب به " .. لكن تلميذه
الأصمعي (المتوفى 213 هـ) المنكر للمولد قال عنه : " لقد لازمته عشر حجج
فما سمعته يحتج ببيت إسلامي " . وكان من أشد علماء اللغة تتبعاً للمولد
وإنكاراً له . فقد رصدت لنا كتب اللغة أقوالاً كثيرة تدل على إنكاره المولد .

ومن المستحسن أن نثبت له خبرين : أحدهما من المزهر " للسيوطي "
والآخر من الخصائص " لابن جني " .

جاء في المزهر قال : " وقال الأصمعي تقول : شتان ما هما ، وشتان
ما عمرو وأخوه ، ولا تقل : شتان ما بينهما . قال : وقول الشاعر :

لَشَتَانُ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى يَزِيدَ بْنِ سُلَيْمٍ وَ الْأَعْرَبِ بْنِ حَاتِمٍ .

ليس بحجة ، إنما هو مولد . و الحجة قول الأعشى :

شَتَانُ مَا نَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَنَوْمِ حَيَّانٍ أَخِي جَابِرٍ " . (1)

كما جاء في الخصائص : " قال أبو حاتم : كان الأصمعي ينكر زوجة
ويقول : " إنما هو زوج " ، ويحتج بقول الله تعالى : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ
زَوْجَكَ ﴾ . (2) . قال فأنشدته قول ذي الرمة :

أَذُو زَوْجَةٍ فِي الْمَصْرِ أَمْ ذُو خُصُومَةٍ أَرَأَيْكَ لَهَا بِالْبَصْرَةِ الْعَامِ ثَاوِيًا .

فقال : " ذُو الرمة أكل المالح و البقل في حوانيت البقالين " . (3)

بأدنى ملاحظة ندرك أن المولد الذي أنكره الأصمعي هو الذي كتب له

1 - السيوطي : المزهر . ج 1 ، ص 319

2 - سورة الأحزاب ، الآية 37

3 - ابن جني : الخصائص . ج 3 ، ص 295

النجاح والاستمرار ، فالتداول على أسنة الأقلام ، وألسنة الكتاب " شتان ما بينهما " ، وكذا " زوجة " بالتاء المؤنثة المربوطة خشية الالتباس ، بالزوج الذي يطلق على الذكر، والبقاء للمستعمل ، و الأصل للتبليغ و الأكثر شيوعا ؛ لكن المهم إدراك اللغويين لهذه الديناميكية اللغوية المتنامية ، والتي رأوا فيها الخير الكثير.

لقد جاء في أمالي ثعلب أنه " سُئِلَ عن التغيير، فقال : هو كل شيء مولد، وهذا ضابط حسن ، يقتضي أن كلّ لفظ كان عربي الأصل ، ثم غيرته العامة بهمز، أو تركه، أو تسكين، أو تحريك، أو نحو ذلك ، مولد .

وهذا يجتمع منه شيء كثير، وقد مَشَى على ذلك الفارابي في ديوان الأدب ، فإنه قال في الشَّمْع و الشَّمْعَة بالسَّكون إنه مولد ، وأن العربي بالفتح ، وكذا فعل في كثير من الألفاظ " . (١)

هَذَا النصّ يحتوي على قضايا هامة منها ندخل في صميم المولد ومفهومه؛ إذ هو كلّ لفظ عربي الأصل، حَصَلَ فيه تغيير و تطوير، كَتَسْكِين حرف، أو تحريكه، أو تبديل حَرْف بحَرْف قريب منه في المخرج، أو هَمْز ما هو غير مهموز، و ترك همزه ... إلى غيره ذلك مما يترتب عنه لبس و خلط بين المعاني .

فعلى هذا سنتناول هذا الموضوع من جانبين :

* أحدهما : مَوقِف العلماء العرب منه.

* وثانيهما : نماذج من هذا المولد .

فالموضوع الأول نجد العلماء العرب متفقين على أن هناك تطوُّراً في

البنية والأداء، واختلفوا في الرؤية، فمنهم من يرى أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم، سواء كان من أصل عربي، أو دخيل، ومنهم من أجاز ذلك في اللفظ العربي الذي سُمع منهم، أو قيس على ما له نظير في كلامهم. وسواء كان القائل ينتمي إلى القدماء أو المحدثين: "لأن المعاني ينتابها المولدون كما ينتابها المتقدمون" (١).

وأن ما قيس على المطرد فهو مطرد، وما قيس على الشاذ فهو شاذ، واعتمادهم في ذلك على الكثير الشائع، ووضعوا ضوابط للقياس، وحصنوها بالشواهد، والأدلة المستقرة من كلام العرب، ولا نريد هنا استقصاءها، واستيفاءها وإنما نريد أن نلمح لها، فلئن كان أبو عمرو بن العلاء والأصمعي والخليل وسيبويه والكسائي والفراء اعتمدوا الرواية، فإن أبا عثمان المازني والمبرد وأبا علي الفارسي وابن جني وضعوا القوانين المضبوطة واستقصوا الأشباه والنظائر.

فهذا أبو عثمان المازني يقول: "وكان أبو الحسن الأخفش يُجيز أن تبني على بنت عليه العرب، وعلى أي مثال سألته، إذا قلت له: ابن لي من كذا، مثل كذا، وإن لم يكن من أمثلة العرب. ويقول: إنما سألتني أن أمثل لك. فمساءلتك ليست بخطأ، وتمثيلي عليها صواب".

وكان الخليل وسيبويه يأبيان ذلك ويقولان: "ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم، وما لم يكن في كلام العرب فليس من كلامهم". فكيف تجعل مثالا من كلام قوم، ليس له في أمثلتهم معنى؟ وهذا هو القياس، ألا ترى أنك إذا سمعت: قام زيد أجرباً أنت "ظرف خالد"، و"حمق بشر"؟ وكان ما قسته عربياً كالذي قسته عليه،

امتناعهم منه لعلّة، لأنك إنما تفسّر أحكام لغتهم، لا ما لم يجئ عنهم،
ولأنك لو ذهبت تذكر أحكام ما لم يجيء لكننت قد شرعت في تفسير ما
لم ينطق به عربي". (١)

إذاً فالعلّة في ترك هذه المُثُل هي أنها لم تأت لها نظائر تُحمل عليها
ولا عِلل تفسّر بها، كالحقّة والثقل، والذكر والحذف، والحال والسياق،
فالقوم يدرسون لغة معيّنة، هي العربية بخصائصها البنوية والإفرادية،
والتركيبية، والبيانية، لذا قال سيبويه: " فاستحسن من هذا ما استحسن
العرب، وأجزه كما أجازته". (٢)

أما ما وراء هذا الواقع المنطوق والمسموع والمخطوط فيتسوّى البحث عنه
المذهب الفلسفي حتى قيل " إن الفلسفة تبدأ حيث انتهى العلم". فكلما
اكتشفت الفلسفة واقعا غاصت وراءه للبحث عن الحقيقة المطلقة للأشياء.
فالمذهب الفلسفي يعتمد البحث فيها وراء الواقع، والمذهب اللغوي يبحث
الواقع نفسه. وإذا كنا قد لاحظنا ما بين الاشتقاق والتصريف من تلاق، فإننا
نلاحظ هنا ما بين المولد والقياس من تلاق وتداخل، إلا أن القياس أضيق
مجالا، والمولد أوسع مقالا، فالأول مضبوط بقواعد محصورة، والثاني فضاء
مطلق، وللاستعمال الدور الأول في إنتاجه، سواء من العامة أو الخاصة،
وضابطه الوحيد هو السماع، " وهذا الخلاف الذي بين سيبويه والأخفش
يدل على صحة ما ذهب إليه أبو علي من أنه يجوز أن تبني من (ضرب) مثل
(جعفر) فتجعله اسما وفاعلا ووصفا، وغير ذلك، فتقول: (ضرب زيد
عمرا). و (مررت برجل ضرب). و (جاءني ضرب). و (رأيت ضربا).

ألا ترى أن أبا عثمان قال: " ما قيس على كلام العرب فهو من

1 - نفس المرجع و الصفحة .

2 - سيبويه ، تحقيق عبد السلام محمد هارون . ج 2 . ص 69

كلامهم" ، فيجب أن يكون (ضَرَبَ) هذا من كلامهم ، لأنك وإن لم تسمعه بعينه فقد سمعت ما هو نظيره ، فجرى مجرى رفع الفاعل الذي لا ينكسر ، لأنك إذا سمعت (قَامَ زَيْدٌ) أجزت أنت (قَعَدَ بَشْرٌ) ، وإن لم تسمعهم يقولون (قَعَدَ بَشْرٌ) ، ولكنك سمعتهم يقولون ما هو نظيره ، وفي معناه ، فكذلك إذا اطردهم (مَهْدَدٌ وَ قَرْدَدٌ) أجزت أنت أيضا (نَخَلٌ وَ خَرْجَجٌ) ... فهذا هنا كذاك ثمة .

ولو كان الغرض في البناء تمثيل الكلمة من المبني منه لزال الخلاف ، لأنهم كلهم مجمعون على أنه لو قيل لهم : ما وَزَنُ (غَدَوَدَن) من الفعل لقالوا : (فَعَوَّلَ) .

و لو قيل لهم : أٌجِيزُونَ إلحاقَ بناتِ الثلاثةِ بناتِ الخمسةِ على مثالِ (فَعَوَّلَ) ؟ حتى يقولوا : (ضَرَّوْرَبُ) لما قاسُوه . فلا يقولون : (هَذَا رَجُلٌ ضَرَّوْرَبٌ) ، كما يجيزُونَ (ضَرَنْبِي) .

ولو قيل لهم : ما وَزَنُ (غَدَوَدَن) من (ضَرَبَ) ؟ لقالوا : (ضَرَّوْرَبُ) . يريدون به المثال لا غير ، ولا يريدون به أن يجعلوه اسما ولا صفة . كما يقولون : (هَذَا رَجُلٌ ضَرَّيْبٌ) . و (هَذَا رَجُلٌ ضَرَنْبِي) .

فهذا كله يُقَوِّي أن تقول : (ضَرَّيْبَ زَيْدٌ عَمْرًا) . و أن لا تُجِيزَ (ضَيْرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا) . ولا (ضَوْرَبَ بَكْرٌ خَالِدًا) . (١)

إن هذا الحرص الشديد على التفرقة بين البنية التي هي هيئة مفرغة وصالحة لأن يصب فيها ؛ أي مضمون غير مقيد ولا معلوم قد أجازته العرب فيما له نظير في كلامهم ، ومنعوا ما ليس له نظير في نظامهم اللغوي ، فأجازوا الأمثلة التي لها نظائر وأشباه ودلائل ، وتركوا المثل الأخرى للمولد ، والدخيل ، والنحوت ، والملحق ، والمصطلح عليه .

ولذا هانَ على أبي علي الفارسي أن يخطئ في مائة مسألة ليست بقياسية . وشق عليه أن يخطئ في مسألة واحدة قياسية، فنشط فريق من العلماء للقياس وتحفظ آخرون كالأصمعي الذي قيل عنه إنه لم يكن " ينشط للقياس ولا لحكاية التعليل ... و (ذلك) لقلّة انبعائه في النظر، وتوفّره على ما يروى ويحفظ " . (١)

هذا وقد أدرك الخليل أن الأصمعي غير مؤهل لعلم العروض الذي ينبنى على الأمثلة الجوفاء والتفاعيل ، " فقال له يوما : يا أبا سعيد كيف تقطع قول الشاعر :

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعُهُ وَجَاوِزُهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ .

قال : فعلم الأصمعي أن الخليل قد تأذى ببُعده عن علم العروض، فلم يعاوده فيه " . (٢)

وقد تدرّجت هذه النظرية إلى نشوء مذهبين ؟ أحدهما يعتمد القديم ، لأنه قديم ، والآخر يُؤثر التطورَ والارتقاء و مسايرة الواقع ؛ لأن كل قديم كان جديدا يوما ما ، وكلّ جديد سيصير قديما لا محالة.

وقد تجسّم مذهب الأصمعي في كتب كثيرة منها كتاب ابن خالويه " ليس في كلام العرب " ، ولا زالت جذوره تمتد إلى عصرنا هذا مع الدكتور مصطفى جواد في العراق مع مشروعه الإذاعي " قُلْ وَلَا تَقُلْ " . وفي الجزائر مع الأستاذ محمّد فارج في الصحافة " الخطأ والصواب " . وفي الإذاعة الجزائرية " لغتنا الجميلة " . وهو مذهب معياري جامد ليس له من الليونة نصيب على ألسنة المتكلمين والمؤلفين، فاللغة تتحرك و تتغير بشكل غريب

1 - ابن جني : الخصائص . ج 1 . ص 182 ، وما بعدها .

2 - (2) ابن جني : الخصائص . ج 1 . ص 362 .

داخليا وخارجيا. وهم ملتزمون بما جاء في غرضون الكلام القديم، فدلالة الألفاظ
نامية جادة في السير نحو الفهم والتفهم ، فلا تنتظر دأشيرة المجامع اللغوية
وقراراتها.

ويقابل هذا المذهب " مذهب ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم"
الذي انطلق مع المازني (المتوفى 249 هـ)، كما رأينا آنفا، وهو المذهب الذي
كتب له الدوام والاستمرار على مدى العصور و السنين . تلك سنة الله في خلقه
﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ .

وأما الموضوع الثاني الذي يتعلّق ببعض نماذج المولّد في القديم فمردها
إلى تحولات طرأت على العربية التي توسّعت رقعتها الجغرافية والبشرية ،
فلم تبق مساحتها محصورة في شبه الجزيرة العربية ، وإنما تعدّتها إلى فارس
والروم ومصر وإفريقيا .

ولهذه الأوطان مجتمعات مختلفة الألسن انطوت كلها تحت لواء
الإسلام الذي دستوره القرآن الذي مزّل بلسان عربيّ ، والكلّ يطمح أن يتحلّى
بلغة القرآن ، فظهرت انكسارات في اللغة ، وانحرافات في النطق تصدّى لها
علماء أجلاء بالدراسة والإحصاء، وذلك لقرب عهدهم بالسلامة اللغوية ،
فأحصوا هذه المفردات إحصاءً ودوّنوها في مؤلّفات " لحن العامّة " . وهي مفيدة
لأنها تبين لنا التطوّر الذي حدّث في العربية .

نكتفي بهذا النموذج البسيط من المزهري للسيوطي :

" قال الموفّق البغدادي في (ذيل الفصيح) : يقال : قرأت آل حاميم ، وآل
طاسين ، ولا تقل الحواميم .

وقال الموفّق أيضا : " قول العامّة : (هَمْ) فعلتُ مكان (أيضا) .
و (بَسْ) مكان (حَسَب) . وله (بَخْتُ) مكان (حَظ) .. كُلُّهُ مُولّد، ليس من
كلام العرب " . (١)

١ - السيوطي : المزهري ج ١ ، ص 304 - 309 (بتصرّف).

هذا هو موقف العلماء العرب اللغويين من المولّد في القديم ، أما في عصرنا هذا فقد نشط علماء لسانيون ، وخصّوه بمؤلّفات رائعة تحت عنوان (المولّد) ، مثل ما فعل خليل مردم ، وغيره . وحشروا فيه الدخيل والاصطلاح والمجاز لكثرتة ، وغزوا كل الميادين ، كالكتب الدراسية ، والصحافة ، والتلفزة ، وجميع وسائل التبليغ الرئية والمسموعة ، والنشاطات التداولية ، فلم يبق حكرا على فئة دون أخرى ، كما كانت في القرون الأولى للتأليف .

• النَحْتُ :

النحْتُ رافِد من روافد العربية ، يمدّها بمفردات منحوتة من مفردتين فأكثر لتأدية معنى يخالف المعاني السابقة للكلمتين ، وفيه اختصار وتوسعة ، وخفّة .

- فالاختصار أنك تختصر كلمتين بوضعك إياهما في كلمة واحدة ، فتقول في " بسم الله " بِسْمَلٍ . وفي " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " هَلَلٍ . إذا أكثر من قول " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " . و" حَوَّلَ " إذا أكثر من قول " لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ " ... وغير ذلك .

- والتوسعة أنك تأتي بمشتقات هذه الكلم الملحقة بالأفعال ، ف " بِسْمَلٍ " فعل ملحق بالرباعي ، مثل (دَحْرَجَ) .. فانت تستطيع أن تأتي بالمصدر فتقول " بِسْمَلَةً " ، مثل (دَحْرَجَةً) . وباسم الفاعل ، فتقول : مُبَسْمِلٌ ، مثل ما تقول (مُدْحَرِجٌ) ...

وهكذا دواليك في باقي الأفعال المنحوتة .

- والخفّة بادية من الألفاظ المنحوتة ، سمعا ونطقا ، لا تحتاج إلى تعليل أو تفسير .

وميزة النحت أنه موكول إلى الاستعمال ، فلا يرتبط بقاعدة جامدة .
يقول ابن فارس في الصحابي : " العَرَبُ تنحت من كلمتين كلمة واحدة ، وهو
جنس من الاختصار ، وذلك كقولك : (رَجُلٌ عَبْشَمِيٌّ) ، منسوب إلى اسمين
[عَبْدُ شَمْسٍ] . و أنشد الخليل :

أَقُولُ لَهَا وَدَمْعُ الْعَيْنِ جَارٍ أَلَمْ تُحْزِنْكَ حَيْعَلَةُ الْمُنَادِي .

من قوله : (حَيٌّ عَلَى) . وهذا مذهبنا في الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف ،
فأكثرها منحوت " . (١)

وأخذ النحت أكثر من مصطلح ، فقد سُمي بالتركيب المزجي وبالإلحاق
والإدغام ، وبلغ درجة قصوى من الشيوع في عصرنا هذا ، فلفظة " سونلغاز "
هي اختزال " للشركة الوطنية للكهرباء والغاز " . ومثلها " سوناطراك " ،
إلى غيرها من الشركات التي نحتت لها كلمة من مجموع كلمات ولفظ
دخيل ، فكانت نحتا وتعريبا ومصطلحا . وقديما قال ابن يعيش : " إن
التركيب على ضربين :

- تركيب أفراد .

- وتركيب إسناد .

فتركيب الأفراد أن تأتي بكلمتين فتركبهما وتجعلهما كلمة واحدة إزاء
حقيقة واحدة بعد أن كانتا بإزاء حقيقتين أو أكثر " . (٢)

وقال أيضا : " والشينان إذا ركبّا قد يحدث لهما بالجمع والتركيب
معنى ثالث ، ويخرجان عن حكم ما لكل واحد منهما إلى معنى مفرد " . (٣)

^١ - ابن فارس : الصحابي في فقه اللغة . ص 271

^٢ - ابن يعيش : ج 1 ، ص 20

^٣ - المرجع نفسه . ج 8 ، ص 155

ونجد هذه النظرية الدلالية تنطبق على كثير من الأفعال و الأسماء

و الحروف ، ففي الأفعال مثلا :

حَبَّ : فعل يدلّ على إرادة الشيء وابتغائه .

ذَا : اسم إشارة ، يعرب فاعلا لفعل (حبّ) .

والنتيجة الدلالية الجديدة : حبّ + ذا = فعل دال على المدح

مثل (نعم) بل نستطيع أن نقول : " حَبَّذْتُ السفر على الطائفة " ، فالفعل

وفاعله عادة كلمة واحدة .

VIII - المَجَامِعُ اللُّغَوِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ :

أهدافُ المِجَامِعِ اللُّغَوِيَّةِ المعاصرة، و دورُها في ترقية اللغة العربية .

- كيفَ نشأتِ المِجَامِعِ اللُّغَوِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ ؟

أصاب اللغة العربية ركود قلما أصاب اللغات البشرية ركود مثله ، بعد الازدهار الذي عرفتة في العصور الذهبية الأولى ، وقد صاحب هذا الانهيار اللغوي سقوط أغلب الشعوب العربية تحت نير الاستعمار الغربي ، وبالأخص الإنكليزي والفرنسي ، فزاد الطين بلةً ، وانحصرت اللغة العربية في بعض الزوايا ، وفي بعض المساجد ، وفي ورود حلقات المتصوفين وشطحاتهم التي يرددون فيها طقوسا بالعربية ولا يفقهون لها معنى .

وفي هذا الظرف الذي تعرف فيه اللغة العربية انكماشاً ، كانت اللغات الأوربية تتنازع البقاء والتسلط فيما بينها كالألمانية والفرنسية والإنكليزية و بدرجة أقل الإسبانية والإيطالية . هنا بدأت فكرة الأكاديميات تراود هؤلاء الأقوام لأنها قديمة في التراث الإغريقي ، حيث ظهرت مع أفلاطون في محاوراته و نواديه ، و اقتفى أثره أرسطو .

و مهما يكن من أمر فإن الأكاديمية العلمية هي التي أسسها الكاردينال الفرنسي " ريشيليو " [المتوفى 1642م] . سنة 1634م .. و واصل هذا المجمع اللغوي رسالته في ترقية اللغة الفرنسية التي كانت لهجة الأسرة المالكة حتى أصبحت لغة عالمية بفضل الجهود المبذولة من طرف العلماء اللغويين الفرنسيين . أما المِجَامِعِ اللُّغَوِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ فقد تأخرت ، فأول مجمع علمي تأسس لترقية اللغة العربية هو " المجمع العلمي بدمشق 1918 ثم مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1934 (1) " ثم تلاه المِجَامِعِ اللُّغَوِيَّةُ فِي

¹ - الأستاذ عبد القادر المغربي ، بحث في مجلة اللغة العربية بالقاهرة 1953 ، تحت عنوان " مجامعنا اللغوية " . ج 7 ، ص 123

العراق و الأردن ، و أخيراً في الجزائر تأسس " المجلس الأعلى للغة العربية " سنة 1998 - 1999 ، مع المجمع اللغوي .

إن هذه المجامع اللغوية التي اعتبرناها رافداً قوياً لترقية اللغة العربية لم تنشأ عفوية ، كما لمسنا ذلك في أصل نشأة العلوم العربية ، وإنما نشأت بقصد و إدراك و شعور بالحاجة الداعية إليها ، و ذلك للاهتمام الكبير الذي أولته الدول الفاعلة في الساحة السياسية للغات الشعوب المستعمرة حتى تُحَكِّمَ السيطرة عليها ، لا مبادياً فحسب ، وإنما لتصل إلى التحكم المطلق في اللغات و العادات و التقاليد و الأعراف و الديانات . و إلى جانب هذا المسعى هناك الدراسات المتنامية لعلوم اللسان البشري العام في الدول المتقدمة الذين شَيَّعُوا العلوم اللغوية ، و أصبحت اللغات من العلوم التجريبية ، مثلها مثل الكيمياء ، فأنشأت المخابر لدراسة الأصوات ، و طَوَّرت مناهج البحث العلمي اللغوي ، فلهذه الأسباب أحسَّ العلماء العرب بضرورة إنشاء هيئات علمية لغوية تجمع شتاتهم ، فكانت المجامع اللغوية هي الجامع المشترك لكل الجهود اللغوية ، فلئن كان أبو إسحاق الحضرمي ، وأبو عمرو بن العلاء ، و الخليل بن أحمد ، وغيرهم ، كلٌّ يعمل على انفراد و اجتهاد ، فإن المجامع اللغوية العربية وحدت الجهود ، في هذه الهيئات ، ووسَّعت المجالات ، و ضبطت في لجان مختصة . فلم يبق مجال للعمل الفردي مثلما كان في السابق مع ابن دريد في " الاشتقاق " و ابن الأنباري في " الأضداد " و الجواليقي في " المعرب " ... و غيرهم كثير ، فلو أخذنا لفظة " مصطلح " لوجدنا أنفسنا مضطرين إلى مئات المصطلحات المختلفة لعلوم الطبيعة و الأحياء و الزراعة و التاريخ و النحو و الجغرافيا ، و الجيولوجيا ، و علم النفس و التأمين و القانون العام والخاص إلى غير ذلك من المصطلحات الخاصة بكل حقل من الحقول .

• منهجية المجامع اللغوية في العمل اللغوي :

1 - سارت المجامع اللغوية في عملها بالرجوع إلى الموروث اللغوي العربي الضخم أسوة بالمجامع اللغوية الأوروبية التي عادت إلى التراث اللاتيني والإغريقي، فوجدت هذه المجامع العربية الخير الكثير في التراث العربي، ومن هنا اهتمت بالدرجة الأولى بالجانب التأليفي والتربوي، فأنشأت الكتب المدرسية، وعملت على تقريبها من الواقع اللغوي الشائع، وهجرت كل ما من شأنه أن يعطل القدرات المختلفة، أو يحدث تشويشا للتلاميذ، واتبعت مناهج حديثة أغلبها مقتبس من المناهج الأوروبية الحديثة التي كانت سبّاقة في هذا الميدان، وأحدثت أبوابا لم تكن معهودة تماما في التأليف التقليدي، كباب في الرياضة، وآخر للرحلات، وثالث للمكتبات... إلى غيرها.

2 - النظام المحكم : انتقلت المجامع اللغوية من الاجتهاد الفردي إلى الانضباط و سن القوانين التي تحكم سير اجتماعات المجالس المختلفة، وشروط العضوية الدائمة و غير الدائمة للأعضاء والمراسلين . و كل اجتماع يتم عادة ما ينتهي بتوصيات و تقارير تنشر في المجلات الخاصة بكل مجمع لغوي فلم يعد العمل اللغوي السبّهلّلي، بل انضبط في هيئة رسمية غالبا ما تتألف من :

* الرئيس العام للمجمع أو المجلس .

* الأمين العام للمجمع أو المجلس .

* الأعضاء العاملين .

* الأعضاء المراسلين .

و تضبط رزنامة العمل السنوي و ما يتخلله من نشاطات و لقاءات و أسفار و ندوات و غير ذلك .. كل هذا يتطلب ميزانية ضخمة، وجهودا جبّارة .

إن رسالة المجامع اللغوية ليست من السهولة مثل ما يتصور البعيدون عنها، لكن نتائجها محققة و مضبوطة . و بفضل المجامع اللغوية العربية أصبحت اللغة العربية رسمية في هيئة الأمم المتحدة، و اليونيسكو، و منظمة التربية، و الثقافة العربية (أيسكو)، و في مجال الصحافة و الطبع و النشر و الأنترنت و العولمة.

إن اللغة العربية في العالم العربي بصفة عامة، و في الجزائر بصفة خاصة يجب أن تُحَدَّم قبل أن تُسْتَحْدَم . و خدمتها في الترغيب فيها بفتح أبواب التشجيع كاستعمالها من لدن المسؤولين الكبار في وسائل الإعلام كالإذاعة، و التلفزة، و الخطب، و الندوات، لأن كلمة الرئيس بَلَقَاءَ مَشْهُورَةٌ يقتدى بها و يُحَذَى حَذْوَهَا . فالكلمة تقوى بقوة قائلها و تضعف بضعفه، كما يحسن أن تفتح أبواب الوظيفة العمومي لحاملها، حتى يَلْجُوا أبواب الهيئات المختلفة و المكاتب الإدارية، و المناصب الحساسة من أبوابها.

و خلاصة الخلاصة :

إن اللغة العربية التي تمدها هذه الروافد المتدفقة بالترادفات و التراكيب قديما و حديثا لقادرة على استيعاب كل المخترعات التكنولوجية، و قادرة أن تسير بشجاعة كل المخترعات و الابتكارات بما لها من مرونة من التحول من حال إلى حال قال عنه الأستاذ عبد الملك مرتاض ، رئيس المجلس الأعلى السابق للغة العربية : " لو قارنا بين حالها في بداية القرن العشرين، وكيف كانت ركيكة ضعيفة إلى حد بعيد حتى على مستوى النسيج الأدبي، و عاجزة عن استيعاب مصطلحات العلوم بشكل يدعو إلى الرثاء، و بين حالها لدى بداية القرن الواحد و العشرين، وكيف اعتدت رشيقة صقيلة، و فتيحة حية، و كل هذا التطور الذي أصابها إنما كان بفضل جهود العلماء ، و مؤسسات التعليم على اختلاف مراحلها و أنظمتها، و معها و سائر الإعلام

الرصينة على تباين قنواتها". (١)

إن الذين يحاولون أن يوقفوا زحف اللغة العربية عن تَبوُّثِهَا مكانتها العالمية لخاطئون في تصورهم هذا ، إذ ...

- كيف يحدث هذا وقد وعد الله بحفظ الكتاب المنزل بها (القرآن) وبحفظه تحفظ من الضياع والاندثار ؟

- أم كيف يصحُّ هذا، ونحن نسمعُ الإذاعات، من الخليج إلى المحيط، بلغة عربية موحَّدة يفهمها كل العرب أينما كانوا، في آسفي أو في الكاظمية ؟

- ألم يصبح الكتاب المدرسي موحَّدًا في كل الدول العربية ؟

بلى إن الأجيال اللاحقة ستتحمك أكثر فأكثر في اللسان العربي المبين ، و لكن لتكون اللغة العربية أكثر ترقية و أحكم أداء و أرشد تحكماً في الجزائر، وفي غيرها من الدول العربية .

يحسُن أن نهتم بالمنظومة التربوية بالدرجة الأولى ابتداء من السنة الأولى من التعليم مراعين في ذلك القدرات العمرية المتدرجة من الأدنى إلى الأعلى، و من البسيط إلى المركب، و من المعروف إلى المجهول . لأن كلَّ الناس يمرون حتما من البيت أولا و المدرسة ثانيا، فإذا توافرت جيوش الذين تزودوا بالملكة العربية، فإنهم لا محالة مقتحمون الإدارة و الثكنة و المدرسة والدبلوماسية و الفلاحة و غيرها بلغة المنشأ و المجتمع و التكوين . و حينئذ يتحوَّل الصراع بين الوجود و العدم . فعلى المجلس الأعلى للغة العربية أن يبسط نفوذه على كل المجالس العليا و الدنيا، و كذا الجمعيات الثقافية مهما كان توجهها .

بسم الله

¹ - عبد الملك مُرتاض : صناعة المصطلح في العربية. مجلة اللغة العربية. العدد الثاني. 1999 . ص 17

* القرآن الكريم ، رواية ومرش .

- 1 - آمدي : الموازنة بين الطائيين - دار المعارف - بمصر . ج 2 ، 1961
- 2 - أحمد أمين : ظهر الإسلام ، 3 ج ، مكتبة النهضة المصرية د.ت.
- 3 - ابن جني : الخصائص ، 3 أجزاء من 1952 إلى 1956 مصر .
- 4 - ابن خلدون : المقدمة ، مطبعة الكتب المدرسية والكتاب اللبناني بيروت 1960.
- 5 - ابن دريد : الجهمرة في كلام العرب . مطبعة السنة المحمدية مصر 1378هـ / 1958م .
- 6 - ابن سلام الجُمحي : طبقات فحول الشعراء ، مطبعة المدني - مصر د.ت.
- 7 - ابن سيده : المخصص ، 6 ج ، دار الآفاق الجديدة بيروت . د.ت.
- 8 - ابن يعيش : شرح المفصل ، 10 ج ، في 5 مجلدات بيروت . د.ت.
- 9 - أبو حاتم الرازي : كتاب الزينة في الألفاظ الإسلامية ، جزآن في مجلد واحد ، 1957 ، مصر .
- 10 - أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، جزآن في مجلد واحد . مكتبة الحياة . د.ت. بيروت .
- 11 - أبو العباس ثعلب : مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون دار المعارف . د.ت. مصر .
- 12 - أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية ، دار الآفاق الجديدة بيروت د.ت.

- 13 - التهانوي : كشاف مصطلحات الفنون، ج 1 ، حققه لطفي عبد
البديع. المؤسسة العامة. د. ت. مصر .
- 14 - الثعالبي : فقه اللغة مكتبة الحياة بيروت . د. ت.
- 15 - الجاحظ :
- (أ) البيان والتبيين 4 تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة
الخانجي 1380 / 1960 م .
- (ب) الحيوان ، ج7، دار إحياء التراث العربي بيروت . د. ت.
- 16 - الجرجاني الشريف : التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت 1416
- 1995 م .
- 17 - الجواليقي : العرب. تحقيق أحمد محمد شاكر 1909. أعيد طبعه في
طهران 1960 .
- 18 - خطاي حمّد : بيان إعجاز القرآن، رسالة من ثلاث رسائل في إعجاز
القرآن، دار المعارف المصرية. د. ت.
- 19 - الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، دار الكتب العلمية بيروت. د. ت.
- 20 - الرّاغب الإصفهاني : معجم مفردات القرآن . تحقيق نديم مرعشلي
بيروت . د. ت.
- 21 - رضي الدين الاستربادي : شرح شامية ابن الحاجب، مطبعة حجازي
القاهرة 1358هـ .
- 22 - الزجاجي : الإيضاح في علل النحو ، تحقيق مازن المبارك، دار
العروبة بمصر. د. ت.
- 23 - زكي الارسوزي : المعرفة السورية ، عدد مزدوج، ص11. سنة 1980.

هذا الكتاب

هذا العنوان اقترضه المؤلف من لندن العالم الكبير ابن جنّي الذي عنون أحد أبواب كتابه الشهير الخصائص بـ : شجاعة العربية

ضم هذا الكتاب في ثنائه ثمانية روافد،

- 1 القياس وفق نظرة جديدة مبنية على أساس " ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم".
- 2 الاشتقاق المتطور الذي يعتمد النظير والشبيه والمثل في كلام العرب
- 3 الأخذ، وهو رافد عظيم لم ينتبه إليه القدماء، وهو أوسع مجالا من الاشتقاق.
- 4 الترجمة: وهي رافد مهم قديما وحديثا.
- 5 المصطلح العربي وتطوره.
- 6 المعرب، ودوره في الإستعمال.
- 7 المولد والنحت وهما بابان مفتوحان لكل متوقع...
- 8 المجامع اللغوية الحديثة ودورها في تطوير العربية.

كل هذه الروافد تبدو للدراس أنها مطروقة، ولكن عندما يطالعها يكتشف أنها على غير ما تعود، لأنها تتناول قلب الحدث اللغوي الحي المتداول لا المجتر المبتذل.

دار الآفاق